روايات مصرية للجيب

11

أحمد فكري

ميتا فيزيقا

مقبرة القديسين

فريق متميزون
E-BOOK

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لسلسلة (ميتافيزيقا)

كلمه مهمة: هذا العمل (تحويل سلسلة ميتافيزيقا للكاتب أحمد فكري الي صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.

وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات: فريق (متميزون) انضم الى الجروب

انضم الى القناة

سلسلة ميتافيزيقا
العدد رقم (11)

مقبرة القديسين

تأليف: أحمد فكري

ميتافيزيقا..

مصطلح يعنى الأشياء التي لا تخضع لقوانين الطبيعة، أو يمكن التعبير عنها مجازيًا، بأنها الأشياء التي تتجاوز حدود الطبيعة أو ما وراء الطبيعة.. وقد أتت الكلمة من الكلمتين اليونانيتين (μετά) ومعناها (ميتا: ما وراء أو بعد) و(φυσικά) وتعنى (فيزكا: مادي أو طبيعي).

أحمد فكري

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مقدمة..

في تلك الليلة، كنت أحلق ذقني مرتديًا فانلة بيضاء فاقعًا لونها، لكن لا تسر الناظرين، حين غنت أم كلثوم «رجعوني عنيك لأيامي اللي راحوا».

الهاتف المحمول شاشته تضيء برقم (هيثم السلحدار)، تركت الماكينة، وذهبت أجيب: - ألو (هيثم)، كيف حالك؟

- بخير حال، وأنت؟

- الحمد لله.

- هل انتهيت من مجموعتي القصصية أم...؟

قاطعته قائلًا:

- الحقيقة، ليس بعد، لكن اليوم سوف أفرغ من تلك الأوراق إن شاء الله، وبعدها سوف أخبرك برأيي دون تملق.

صمتُّ برهة وأردفت:

- هذا لا يعني أنني لم أقرأ، لقد قرأت بالفعل الكثير من تلك الأوراق، لكن على ما أظن أن الباقي كثير؛ لذا لا داعي للحكم المتسرع، وسوف أعطيك رأيي المتواضع بعد تمام الانتهاء.

- حسنًا، أنا أنتظر بفارغ الصبر.. أنتظر هاتفك، أو أنتظر إعادة الأوراق.

- هذا وإن كان رأيي لن يفيد على ما أعتقد.

- كيف؟! أنا أحترم رأيك جدًّا أيها الرجل، وإلا ما أعطيتك المجموعة.

- ما دمت تريد ذلك.

قلتها وأغلقت الهاتف، وذهبت كي أنتهي من حلاقة ذقني، وأعددت كوبًا من الشاي الساخن بالنَّعناع، وخفضت صوت المذياع، وجلست أمام المنضدة، وقد كان كل شيء كما كان وكما تركتها، أمسكت بالملزمة وبدأت استكمال ما بدأت، وكان العنوان الأول جِدَّ جذابٍ (مقبرة القديسين)، لتكن إذن سهرتنا مع مجموعة (هيثم)، لكن سوف أعيد الترتيب والصياغة كما تعلمون.. وكان العدد الخاص الثاني.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الحكاية الأولى
مقبرة القديسين

في البداية كنت فضوليًّا فقط،

أما الآن فقد أصبحت مجنونًا!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- 1 -

- سوف تتعافى.. لا تقلقا.

وقف الطبيب على باب الغرفة متأهبًا للمغادرة ومضيفًا:

- صدقاني سوف تفيق لا تقلقا، هذه صدمة عصبية شديدة، سوف تتعافى، لكن ستأخذ وقتها كما تعرفان، لا بد أن حدثًا جللًا قد حدث، أو أنها رأت ما ضغط على أعصابها بشكل لا يحتمل.

لا بد أن تبقى تحت الملاحظة، ولتعطياها تلك الأدوية التي كتبتها، ستتحسن إن شاء الله، رقم هاتفي معكما، في أي وقت أنا موجود.

لك أن تتوقع وَقْع ما قاله الطبيب على الوالدين، لم تستطع الأم أن تنتظر أكثر من هذا كي تنفجر في البكاء الهستيري، ولا الأب أن ينهض وهو يقول والدموع تنهمر من عينيه: لقد ضاعت ابنتي.

لقد كان الموقف صعبًا بحق على تلك الأسرة في الأيام التالية..

جوار الفراش كانت الأم تمكث أكثر الأوقات، تتلو آيات القرآن الكريم، وتعبث في شعرها، وتلثمها بين الحين والآخر.. هذا عن الأم، أما الأب فكان كالمجنون، يتحدث بين الحين والآخر إلى طبيب مختلف، يحاول الفهم أكثر.. باختصار كانت حالتهما سيئة.

حتى أتى اليوم الذي أمسك فيه الرجل هاتفه، وطلب رقم آخر شخص كان مرافقًا لها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- 2 -

دعونا من هذا الآن، ولنحكِ القصة منذ بدايتها حتى تتشابك الخطوط ونعرف التفاصيل أكثر.

أنت تعرف القصة بالمناسبة، وتعرف قواعد اللعبة أيضًا، كل شيء يبدو كأنه حدث منذ زمن بعيد والآن يتكرر، لا ليس (ديجافو) إن كنت تظن ذلك، بل هي تلك القصة التي تتكرر.

سوف أحكي لك كل شيء، قصتي ربما أنت تعرفها أو ربما قرأت مثلها.. حسنًا، تقول لي دعيك من تلك المقدمات، ومن ذلك الجزء الذي تقولين إننا نعرفه، حسنًا ليكن ذلك.

اسمي (ماجدة) (ماجدة الشنواني)، مصرية كما هو واضح، تخرجت في كلية الآداب قسم اللغات الشرقية.. بيئة متوسطة، والدان متوسطان.. شقة متوسطة بدورها، لدي أخ يصغرني بعامين اسمه (منير)، لكن عقله أصغر مني بكثير.

عملت بإحدى المدارس الخاصة كمشرفة أدوار، لا دروس ولا حصص، فقط أجلس على مقعد خشبي طَوال الوقت، وأمسك عصًا خشبية كانت يومًا ما جزءًا من مقعد آخر تهشم تحت مؤخرة إحداهن.

أرقب الأطفال، وألوح بالعصا كل دقيقتين؛ كي تعود المياه إلى مجاريها، وليعود الجميع إلى الفصول.

تمر الساعات كئيبة، ثم يدق جرس نهاية اليوم، هذه الحصة الأخيرة، وهذا جرس الانصراف، تنطلق الحشود كالجاموس الهارب من أسد جائع يدهس بعضهم البعض في قسوة، والبقاء للأقوى.

أستقل سيارة أجرة أحشر نفسي فيها حشرًا، وأعود إلى البيت، تسألني والدتي للمرة المائة إن كنت قد وجدت عريسًا، فأجيبها للمرة الألف أن المدرسة لا يعمل بها إلا الفتيات، تزفر في ضيق وتنهرني على عمري الذي ضاع هباءً مني، وتطلب مني أن أساعدها في إعداد الطعام.

هكذا هي وتيرة حياتي، أنتم تعرفون كل شيء..

أصارحكم القول.. أنا لم أشعر مطلقًا كأي أنثى بتلك الهرمونات التي تشير إلى أي فتى وتقول لي هذا هو.. لم أحب مطلقًا، لم يعجبني أحد مطلقًا.. كان الرجل بالنسبة لي كائنًا فوضويًّا لا يفعل شيئًا سوى أنه يعطي الأوامر هنا وهناك، كأنه مأمور في قسم شرطة.

لقد توالى المتقدمون وتزايدت الأعداد، وتوالى الرفض، ثم بدأ العدد في التضاؤل وقل المتقدمون، حتى صار الجميع يقولها في سره، هذه الفتاة لا تريد الزواج، أو إنها تنتظر ذلك الفارس الذي سيأتي لها على ظهر حصانه الأبيض بدوره، أو إنها قد... نعم تخلت عن بضاعتها التي لم تُرد إليها لذلك الفتى الرقيع الذي ذهب ولم يعد، ولا تريد أن يفتضح أمرها بعد؛ لذلك اخترت الصمت والبكاء وعدم الموافقة وعدم الزواج.

وفوق كل ذلك كبرت سني؛ لذا انتظرت أي أحد كي أصبح مثل أي أحد، لكن رغم كل شيء نضجت ونضج تفكيري معي.

كنت أعرف أنه غني، رآني أعجبته، طلب يدي من والدي الذي وافق وكتم موافقته، لقد كان يعرض علي الزواج، وكأنه يأمرني بالزواج منه..

الحقيقة أنه كان عريسًا لا يرفضه أحد، أو لنقل إنني تعلمت من الأخريات الغبيات. كما قلت لكم نضجت ونضج تفكيري؛ لذا لم أرفض.

وسافرنا سويًّا إلى ذلك البلد العربي.. حقيقة كانت صدفة جيدة أن ألتقي به، فأنا على الرغم من أن قطاري قد أسرع وشارف على مغادرة محطتي، إلا أنني كنت أتقدم بقدم وأتراجع بالأخرى، فصرت أحسب كل شيء، صحيح أنني انتظرت أي أحد، لكنني لم أكن لأوافق على أي أحد؛ لذا كان القدر يحمل لي تلك الفرصة التي علم مسبقًا أنني لن أرفضها.

حتى هنا كانت الحياة عادية كما ترى، ومر عامان، إلى أن جاء وطلب مني حزم أمتعتي؛ لأننا سنغادر، إنها الهجرة، إن عمله قد انتقل برمته إلى الغرب، حيث أنا (je) وأنت (Toi)، لم أجد مناصًا من أن أذهب حيث سيذهب، إنه زوجي وأنا معه حيثما ذهب، حتى لو اضطره عمله إلى الذهاب إلى زحل فسوف أتبعه إلى مجرته.. وكانت مجرته هذه المرة هي (فرنسا).

كانت المرة الثانية صعبة أكثر من المرة الأولى، فالمرة الأولى أنت تعلم أنك ذاهب إلى بلد يتحدث العربية، حتى ولو ليست ذات اللكنة، لكنك ستفهمها، أما أن تذهب إلى بلد لن يعرفك فيه أحد، ولا يعرف ما الذي تقوله أو ما الذي تريده كذلك، فهذا أمر ليس يسيرًا.

لم يكن لي أحد في ذلك البلد سوى زوجي (عبد الكريم) إن لاحظت ذلك، حتى والداي لم يكن يربطني بهما سوى مكالمة الهاتف المرئية فحسب، كنت أتحدث إليهما مرتين في اليوم تقريبًا، ثم صارت مرة واحدة في اليوم، ثم مرة واحدة في الأسبوع، أما عن أخي فتزوج بعدها بشهر أو قليل، وصرنا نتحدث في اليوم مرة، ثم في الشهر مرة، ثم انقطع كل شيء.

لذا لم يكن لي سوى (عبد الكريم)، للأسف لم يرزقنا الله بالولد، لم أحمل منه قط.

انتقلنا إلى المنزل الجديد في الغرب، وكان كل شيء كما تراه في الأفلام، صرت وحدي تمامًا، (عبد الكريم) صار ما يهمه عمله فحسب، صار يجلس في عمله بالأيام، كنت أتحدث إليه فيقول إنني انتقلت إلى هنا من أجله، هذا عملي وهذا مستقبلنا، حقيقة لقد تبدل بعد أن أيقن أنني لن أنجب، لقد أهملني تمامًا كما تعلم.. لذا حاولت أن أتعلم اللغة الفَرَنسية حتى يتسنى لي التعامل مع الناس هناك، في البداية كان الأمر صعبًا، ثم صار أسهل عندما بدأت ألتحم بهم، أنت تعلم أن الرجل الصعيدي الذي يحرس المعابد في الأقصر لم يتلقَّ تعليمًا ليجعله يتحدث تلك اللغات التي يتحدثها، لكنها لغات الترجمانات كما تعلم.

تعرفت على صديقة لي تحيا إلى جواري، ذات مرة وأنا ألقي بسلة المهملات خارج المنزل، تعرفنا على بعضنا البعض، صارت تجلس معي بالساعات، عرفت أن اسمها (نتالي)، تعيش مع صديقها في نفس الشقة، وتتحدث الإنجليزية، صحيح أنها إنجليزية مكسرة، لكنها تفي بالغرض في التواصل مع بعضنا البعض، بالطبع صديقها هذا لم يكن سوى صديقها، فلم يكن زوجها لو كنت حسبت هذا مثلي، فقد كنت أحسبه زوجها؛ لأن تلك هي الفطرة، أقصد فطرتي، لكن ما حسبته لم يكن صائبًا، كان صديقها يراني ويرمقني بتلك النظرات التي تشي بشيء أنت تفهمه، صحيح أنني عادية لست بأجمل نساء الكون، سمراء أو لنقل إنني خمرية أرتدي الحجاب باستمرار لا أخلعه تقريبًا، وصحيح أن (نتالي) بيضاء كورقة تمتلك عينين حادتين كأنفها، شعرًا أصفر تصبغ خصلته الأمامية بالأزرق، باختصار هي كالحورية لكن أنت تعرف هؤلاء القوم، يحبون كل ما هو ليس تقليديًّا لديهم؛ لذا قررت ألا أذهب إليها، لكن علاقتنا لم تنقطع، فقد كانت هي تأتي لتجلس معي، حتى أتى ذلك اليوم ودق علي الباب وفتحت، وجدته يقف أمامي يرمقني بتلك النظرة إياها، وكان ثملًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- 3 -

كان الوقت ليلًا، (عبد الكريم) في عمله كما جرت العادة، وكأنه كان يعرف.

كان هو أقوى مني بكثير، وضع يده المعروقة على فمي بشدة، وبالأخرى دفعني إلى الداخل وهو يمسكني من رقبتي ليخنقني، حاولت جاهدة أن أتملص منه، لكنه كما قلت كان أقوى مني بكثير، لم آخذ منه سوى دقائق وبضع لكمات حتى غبت عن الوعي تمامًا، وتركته وحده ليفعل ما يريد دون تدخل.

لم أعلم كم من الوقت قد مر إلى أن أتت لي (نتالي)، وأفقت أنا مما كنت فيه.. أفقت لأجدها جواري.. تجثو على ركبتيها تحدق في، ثم: (Are you alright?)، دفعتها بسرعة، ونظرت إلى نفسي وحالتي المزرية، انخرطت في البكاء ولم أتوقف، حاولت هي تهدئتي، لكنني دفعتها مرة أخرى ونهضت، هنا وجدت (عبد الكريم) يقف أمامي يسد فرجة الباب ويرمق كلتينا، هُرِعت إلى أحضانه وانهرت، نظر إلى عيني مباشرة، وأضاف:

- ما الذي حدث؟ ما بكِ؟

لم أنطق أنا بكلمة، فقط (نتالي) حكت كل شيء بإنجليزيتها المكسرة في سرعة فائقة واصفة كل شيء، دفعني وسقطت أرضًا، وهو يسبني ويسب كل شيء، ثم فعل آخر شيء كنت أظنه أن يفعله، لقد أمسك بي وبلا كلمة واحدة، دفعني إلى الخارج، ودفع خلفي (نتالي) التي لم تكن في أفضل حال، فقد دفعها هي الأخرى دفعة جعلها تأخذني ونسقط أرضًا مجددًا، حاولت جاهدة أن أشرح له كل شيء، لكنه كان فظًّا غليظ القلب ولم يقبل أي شيء مني، دققت الباب بكلتا يديَّ كثيرًا لكنه لم يفتح، ولم أجد مناصًا إلا أن أبقى مع (نتالي) بعد أن أقسمت إنها سوف تطرد صديقها إلى الأبد، وعشت معها في بيتها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في البداية حاول صديقها التردد على بيتها، لكنها كانت تتحدث معه في عصبية شارحة في كل مرة الموقف المعقد الذي صارت فيه معي، وصرت أنا فيه بسببها وبسببه، بحق حاولت أو لنقل فكرت مرات عديدة في ضربه أو قتله بأي شيء، لكنني عدلت عن الأمر، هو الأقوى وسوف يبرحني ضربًا مرة أخرى إن فشلت في قتله، وأنا أعلم جيدًا أنني سوف أفشل.. لذا كنت أقف خلف الجدار وأستمع إليهما في كل مرة يأتي إليها، وتطرده فيها وتصفع خلفه الباب.

كانت (نتالي) ودودًا بحق، طيبة بحق، لكنها كانت منحرفة المزاج كما تعلم عن هؤلاء الغربيين.

كان منزلها مكونًا من غرفتين ومرآب خارجي، وصالة كبيرة، وهناك غرفة من تلك الغرف لم تكن تفتحها (نتالي) قط، كانت تغلقها دائمًا، ولم أسألها يومًا ما عن تلك الحجرة أبدًا، حتى عند دخولها لم أكن أسألها عن تلك الفترة التي تغيب فيها داخلها.

حتى أتى اليوم الذي ذهبت فيه كي تحضر لنا طعامًا، وتركت تلك الغرفة مفتوحة ولم تغلقها كعادتها، أنت تعلم أن الممنوع مرغوب، وتعرف الفضول الذي قتل القط؛ هناك قصص كثيرة عن الفضول، وعن الغرف المغلقة.

أنت تعرف قصة البارون (إمبان) صاحب القصر العتيد في (مصر الجديدة) بـ (القاهرة)..

تعرفها جيدًا.. وتعرف كذلك أنها من أكثر الروايات المرعبة عن قصر البارون، «غرفة الدم» كما يطلق عليها البعض، وهي الغرفة التي عثر فيها زوار القصر على دماء متجلطة دافئة على جدرانها، على الرغم من مرور ما يقرب من مائة سنة على إنشاء القصر، كما شهدت تلك الغرفة طقوسًا خاصة قام بها «عبدة الشيطان»، وهم مجموعة من الشباب والفتيات قاموا في منتصف عام (1997) بالتسلل ليلًا إلى قصر «البارون» ومارسوا طقوسًا غريبة، وتم القبض عليهم لاحقًا، وقد كانت قضية شهيرة، هزت المجتمع المصري آنذاك.

وقصة الملك الذي أحضر لزوجته قصرًا به مائة غرفة، وطلب منها ألا تفتح الغرفة المائة، ولم تفتح إلا الغرفة المائة وتركت التسع والتسعين.

وقصة الأطفال عن الفتاة التي قابلت زوجة أبيها الشريرة، وجلست معها في شقتها ذات السبع غرف، وطلبت منها أن تنظف دائمًا الغرف الست وألا تنظر أبدًا للغرفة السابعة، وفعلًا كانت الفتاة تنظف الغرف الست، ولا تدخل الغرفة السابعة، حتى أتت لها الجنيات وطلبن منها الدخول إلى الغرفة السابعة، ودخلت ووجدت بها أكوام ذهب، وقلن لها ما يلتصق بك من ذهب فهو لك.

أنت تعرف تلك القصص عن الغرف المغلقة والفضول؛ لذا دلفت إلى الغرفة المغلقة الخاصة بـ (نتالي)، وكان الهول ذاته ينتظرني.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قُفَّ شعر رأسي من هول ما رأيت، كانت غرفة غير منسقة تحوي الكثير من الصور والكتب العتيقة المهترئة التي تعرف كنهها من قبل أن تقرأ حرفًا فيها..

غراب ميت معلق على الحائط! الكثير من الأقنعة الضخمة المعلقة على الجدار، وقط تم تحنيطه، والكثير من الجلد الذي تم دبغه جيدًا في كل مكان!

الغرفة تكاد درجة حرارتها تصل إلى التجميد، تملكني الهلع، لكنني فضولية وأحب المغامرة؛ لذا توغلت إلى الداخل أكثر حتى قابلت في طريقي جمجمة محطمًا جزؤها العلوي!

وسمعت صوت الباب وهو يفتح!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- 4 -

كان المطر ينهمر في الخارج، حين دلفت علي (نتالي) لتجدني داخل غرفتها وأفحص كل شيء.

وضعت ما جاءت به على أقرب منضدة، ووضعت يدها فوق كتفي وهي تقول:
- حسنًا، لقد رأيت كل شيء، لقد انكشف سري الصغير الآن.

استدرت لها وأنا أقول لها مشيرة إلى تلك الأشياء: - أنت إذن ساحرة، أنت من (القَبَالة) أو (الفودو) أو من أرباب السحر الأسود.. صحيح؟

قهقهت في غرابة وهي تمسك معدتها، وأضافت:

- هل هذا ما فهمتِه يا (ماج)؟ لا أنا لست ساحرة، بل أنا أهوى جمع التحف الغريبة.

قالتها ثم أردفت وهي تتمتم بكلمات هامسة:

- أنا من الـ (الكاتافيل) (Cataphiles).

أخذت أبسمل وأحوقل، وخرجت من الغرفة إلى الصالة وأنا أضع يديَّ كحائل بيني وبينها؛ كي لا تلمسني، كأنها عقرب سامة أو أفعى رقطاء، وكانت هي في نوبة هستيرية من الضحك.

- أنا لست ساحرة يا (ماج)، أنا من (الكاتافيل).

- وهل هذا ضرب من ضروب السحر عندكم في (فرنسا)؟

- بالطبع لا.

جلسَتْ على مقعد وثير، لكنه مهترئ، وتناولت سيجارة أشعلت طرفها وسحبت نفسًا أطلقته في الهواء، كعم صبحي البقال لدينا في المنطقة، وأضافت: - (الكاتافيل) مصطلح يطلقونه هنا على المستكشفين غير المصرح لهم، نحن مجموعة تستكشف سراديب لندن، لكن دون ترخيص.

جلست أمامها وبدأت أفهم كل شيء عن هذا (الكاتافيل).

نظرت لي وقالت في أهمية كأنما وجدت ضالتها: - إن تاريخ تلك السراديب، أو لنقل هذه الأنفاق، يرجع إلى القرن الثاني عشر، كمقالع تحت الأرض للحجارة التي استخدمت لبناء المدينة، ليتم بعد ذلك إغلاقها ونسيانها، ثم بعد ذلك وقبل الثورة الفرنسية بوقت قريب وفي أواخر القرن الثامن عشر، تم نقل جزء من هذه الأنفاق كمستودع لكمٍّ هائل من عظام الموتى، التي نُقلت

من المقابر الباريسية بعد أن عَرفَت في تلك الفترة اكتظاظًا شديدًا شكّل تهديدًا للصحة العامة.

وتم بعد ذلك نقل بقايا عظام (6) ملايين إنسان إلى داخل هذه السراديب، ما بين أواخر القرن الثامن عشر وأواسط القرن التاسع عشر، لتشكّل تلك الأنفاق التي تُعرف الآن أمام العالم باسم (الكاتاكومب).

أنهت حديثها، وكان في رأسي تدور الكثير من الأفكار، تخيل معي أنهم يحفظون عظام موتاهم من قديم السنين، ينقلونها ويجعلونها مزارًا سياحيًّا، ليس فقط مزارًا، بل هناك مستكشفون معاتيه ينتظرون الليل حتى يتسللوا إلى أسفل معرضين حياتهم إلى الخطر؛ حتى يستكشفوا أماكن لعظام ورُفات لبني آدميين آخرين تم نسيانها، وبهذا يحصلون على اكتشاف مذهل وسبق صحفي لهم.

افتخرت ورفعت رأسي في شمم، وقلت لها بملء فِيَّ: - مجرد عظام بالية عفا عليها الزمان.

- ليس كذلك فقط، ممنوع منعًا باتًّا شديدًا لمس تلك الرفات؛ لأنها ستتحول في يدك فورًا إلى كومة من التراب.

- أكيد.. (صمتٌّ برهة).

- هل زرت مصر يا (نتالي)؟ لو زرت مصر يا (نتالي) فسوف تموتين وتصابين بسكتة دماغية عند لقاء أول معبد أو أول مومياء تقابلينها في زيارتك.

- حقيقة أريد هذا.

- أن تموتي بسكتة دماغية؟

- لا، بل أقصد أريد زيارة مصر.

لم تفهم دعابتي، وأضافت وهي تفرك كلتا يديها في بعضهما البعض في حماسة شديدة لِما قلت: - أود أن أزور معبد فيلة ووادي الملوك.. صحيح، هل هما بالقرب من بعضهما البعض؟ أقصد أين مكانهما تحديدًا؟

هذا سؤال مباغت لم أجهز له إجابة، هل أخبرها أنني لم أزر أيًّا منهما قط، أم أقول لها أية إجابة؟ ابتسمت في غباء وأضفت: - إنهما في مصر؛ لذا هما قريبان جدًّا من هناك.

بالطبع كانت إجابة تنم عن غباء واضح، خاصة وأنا ألوح بيدي في بلاهة إلى لا شيء.

نظرت إلي وتمتمت وأومأت برأسها كالبَلهاء ثم أضافت: - حسنًا.. ما رأيك في أن تأتي معي في زيارة إلى السراديب، سوف نذهب إلى هناك اليوم.

- سراديب؟!

- (الكاتاكومب) أيتها البلهاء.

نظرت لها ثم قلت:

- ولو أن في هذا خطرًا لكني أحب المغامرة، سوف أذهب معك.

- معكم.

- معكم؟!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- 5 -

في الوقت الذي أعدَّت فيه تلك الحقيبة الجينز السوداء بما أخبرَتْها به (نتالي)، كانت والدتها قلقة عليها، تتصل كثيرًا ولا رد، ثم تم إغلاق الهاتف، في الحقيقة لم يتم إغلاق الهاتف، بل ضعف الشبكة لوجودها تحت الأرض هو ما جعلها تعتقد أن الهاتف مغلق وغير متاح.

اتصلت والدتها بزوجها، فأضاف وهو يسبها ويلعنها ويسب العالم بأسره ويلعنه:

- لقد طلقتها، ابنتك أحضرت لي العار داخل البيت، ولولا أنني أعلم جيدًا أنكم أناس طيبون، لكنت أفرغت مسدسي في رأسها، ولن أزور فيها السجن ولو لساعة واحدة، لكنني أعلم أنكم أناس طيبون؛ لذا أطلب منكم ألا تتصلوا بي هنا أو على هذا الرقم مرة أخرى، وإلا سمعتم مني ما لا يسركم.

قال ما قال، وأغلق الهاتف في وجه والدة (ماجدة)، التي تركت الهاتف يسقط من يدها، وسقطت هي الأخرى لتلحق به وقد أغشي عليها وسط الصالة أمام زوجها.

ظل زوجها يصرخ لدقائق كالمجنون، حتى أتت سيارة الإسعاف وأخذتها إلى المستشفى.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان الوقت ليلًا كما تعلم، الآن نرى (ماجدة) وهي تقف عند بداية الطريق المؤدي إلى (الكاتاكومب)، الطريق غير الشرعي، الطريق المخصص للـ (كاتافيل).

تربط خصرها بالحقيبة التي استقرت فوق كتيفها، أمامها رجلان وسيدتان، الرجل الأول يرتدي تيشيرت أصفر اللون فضفاضًا يذكِّرك بالمصارع (جون سينا)، فهو أقرب إليه بالفعل سواء في هيئته الجسمانية أو الشبه العظيم بينهما.

يضحك كثيرًا بصوت مكتوم، أو بصوت يحاول هو جاهدًا أن يكون مكتومًا.

حاصل على دكتوراه في التاريخ، اسمه (بيل)، وأصدقاؤه يطلقون عليه (بي).

أما الآخر الطويل القامة هذا فهو (ميشيل) من أصل مصري، ترك بيته وسافر باحثًا عن العمل الذي لم يجده في بلده، أعجبته (تمارا) تلك السيدة التي تقف إلى جانبه، فتزوجها وأخذ الجنسية الإيطالية، وقرر أن يظل بقية العمر جوارها سواء في منزل الزوجية أو البلد بأكمله.

الطبيعي أن يتم الحجز من خلال الإنترنت، ثم يقفوا في ذلك الطابور، ويدخلهم رجل الأمن بعد تلقي التعليمات التي يحفظونها عن ظهر قلب.. بالنسبة للأماكن المفتوحة للسياح، تبدأ الرحلة من أحد المداخل في ساحة (دونفير)، أنت تعلم كذلك أن الدخول ممنوع على الأشخاص الذين لديهم مشاكل في التنفس أو القلب، والأطفال أقل من (14) سنة لا يدخلون وحدهم أبدًا كذلك، تبلغ درجة الحرارة في الداخل (14) درجة مئوية، يبلغ متوسط ارتفاع سقف الأنفاق (1.8) متر، يدخلون ليشاهدوا خلال هذه الرحلة أكداسًا من العظام والجماجم البشرية فوق بعضها البعض مرصوفة على الجدران.. أمام أكوام العظام هذه وضعت لافتات قديمة مصنوعة من الحجر تُبين المكان الأصلي الذي أتت منه هذه العظام، كاسم المقبرة وعنوانها. لكن هذا هو الدخول الشرعي كما تعلم، لكنهم لن يدخلوا هكذا كما ذكرت.

يقف (بيل) واضعًا يديه في خصره، ومضيفًا:

- سوف ندخل الآن عبر تلك الفُتْحة، حذار أن يضيع أحدكم، فلن يشفع له وجود هاتفه المحمول معه، أو حتى أنظمة الـ (جي بي إس)، فتحت الأرض كل شيء مفقود حتى الشبكات، لقد فقدنا صديقًا من قبل، تاه في الأنفاق ولم نجده، وعثرت عليه السلطات بعدها بأيام في حال يرثى لها.

هذه المتاهة من الأنفاق متشابهة ومتشابكة كأنها متاهة كبيرة تحت الأرض، بعمق يصل حتى خمسة وعشرين مترًا أحيانًا، متجاوزًا بذلك العمق الذي تكون عليه أنفاق المترو ومجرى الصرف الصحي.. هذا الذي سنعبر منه، وبالمناسبة هذا ليس صرفًا صحيًّا، بل هي عملية تمويه معروفة لنا، سنختار تلك الفُتحة أولًا للدخول إلى الأنفاق، قالها وهو يشير إلى بالوعة قد شطر غطاؤها إلى نصفين، لكنَّ غطاءها كان من القضبان الحديدية.

- بعض فتحات الأنفاق المؤدية للـ (كاتاكومب) تجدها في الشارع تشبه تلك الخاصة بمجاري الصرف الصحي بأغطيتها المعدنية، وسوف نجد هناك مداخل كبيرة بأبواب، وتقوم عادةً الشرطة بإغلاق تلك الفتحات التي تشبه فتحات الصرف الصحي عن طريق لحم الحواف المعدنية لغطاء الفتحة، لكن نحن ننجح في اكتشاف مداخل جديدة، ونبقي على سرية ذلك الاكتشاف؛ لذا فهذا المدخل سري للغاية أيها السادة.

بعد الوصول إلى الأنفاق عبر السلالم الطويلة، سوف نتجول على أقدامنا حاملين معنا تلك المصابيح الصغيرة والخريطة الخاصة بالأنفاق، وقد أبلغتكم مسبقًا بتحضير كل هذا.

- نعم.. نعم أحضرته.

قالتها (ماجدة) وهي تتحسس حقيبتها وتتحسس ما بداخلها.

يتقدم (بيل) ويهبط من الفتحة بحذر، يمسك بكشاف في فمه، ويمسك بيديه بدُرج حديدي، يهبط ويذوب أكثر في الفتحة، ثم يأمر الجمع بالهبوط خلفه.

يتقدم (ميشيل) بعد أن ترك يد (تمارا) زوجته كأنه ذاهب بلا رجعة، ينظر عبر الفتحة ويهبط بدوره إلى أسفل، تبعته زوجته ثم جاء دوري.

كان الأمر صعبًا كما تعرفون، حين وضعت قدمي على الأرض بدأت أختنق بلا سبب، لم أتقدم خطوة واحدة، وبدأ قلبي يدق بعنف!

الخطوة الأولى صعبة دائمًا، أنتم تعرفون ذلك أكيد.

(ميشيل) أمسك يد زوجته مرة أخرى، وبدآ في التقدم، أضأت الكشاف ووجهته إلى الأمام وبدأنا في السير.

كان المكان أشبه بالمجارير، نفق كبير أسطواني، رائحة عطنة، «الكاميرا غير مسموح بها؛ حتى لا تصاب العظام بالضرر»، قالها (ميشيل) بعد أن أخرجت (ماجدة) الهاتف كي تلتقط بعض الصور، فدسته مرة أخرى في حقيبتها آسفة.

كانوا يتوغلون بحرص شديد، قال ميشيل بعد أن همس في أذني زوجته:

- سيكون من الصعب العودة دون علامات.

صرخ (بيل) دون أن ينظر إليه كأنه أهانه إهانة بالغة:

- تقول هذا وأنا هنا؟!

ثم افتعل ضحكة مهزوزة، وهو يضيف:

- سوف نعود.. أنا أعرف كل زقاق في (الكاتاكومب).

هنا كانوا قد وصلوا إلى منطقة منخفضة، كانوا مضطرين فيها إلى أن ينحنوا، أو بالأحرى مضطرين للمشي بظهر منحنٍ.

أخرج (بيل) خريطة من جيوبه، وأضاف:

- لقد وصلنا تقريبًا، سوف نضطر للزحف في تلك المنطقة لخمسة أمتار تقريبًا، وبعدها سنصل إلى المنطقة البكر التي لم يصل إليها أحد منذ قرابة القرن.

كادت (ماجدة) تختنق، وحرارة الجو ازدادت سوءًا، وصار الجو خانقًا، لكنها كانت تقول لنفسها: هلمَّ يا فتاة، كوني قوية، لا مجال للتراجع.

يزحفون حتى يصلوا إلى منطقة تعتبر ذات سقف عالٍ قليلًا عما مروا به، هنا نهض الجميع من على بطنه، وبدأت الكشافات تدور في المكان ليروا أين هم.

كان المكان أقرب إلى مقبرة جماعية، لا شيء سوى الكثير من الجماجم والعظام البالية تكدست فوق بعضها البعض باهتمام، فقد رصوها فوق بعضها بانتظام شديد.

استندت (ماجدة) بيدها إلى عمود متآكل في وسط المقبرة يمنعها من السقوط فوق رأس الجميع، وكان الهول ذاته.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الآن نرى ذلك الجمع من العمال الذين يعملون بجد في ذلك المنجم، يقف كبيرهم وهو يغني والعرق يتصبب منه فيمسحه بكف يده ويواصل العمل، ينظر للعمال الذين يعملون حوله كي يراقبهم، ثم يعاود الكَرة، يصرخ في أحدهم أن هلم كي نلحق الشمس والنهار، وإلا أتى الليل وتركنا كل شيء وكان يومًا آخر، فتدب في العمال الروح من جديد ويعملون بجِد أكثر.

أنت تعرف أن تلك المناجم غير مشروعة، لقد بنيت تلك المدينة على الحجر الجيري، ولأن ذلك الجزء من المدينة يحتوي على الكثير من العمال، فقد انتشر عدد كبير من المناجم غير المشروعة، فأصبحت تلك المنطقة والمناطق المحيطة بها كحقل ألغام بعد ذلك، يخترقها العمال غير الشرعيين يجوبون فيها ليلًا، ثم يتركونها خاوية على عروشها، خاوية من الأسفل، فينهار كل شيء في لحظة.

وهذا ما حدث هنا، شعر العمال بتلك الهزة الأرضية، الأرض ترتج تحت أقدامهم، تركوا ما كانوا يعملون، نظروا إلى كبيرهم، وجدوه ما زال يعمل وما زال يغني، كان يعلم أن الأرض تهتز من تحته هزًّا، لكنه لم يبال، لو شعروا أنه خائف فسوف يتركونه ويهرعون إلى الخارج، وسوف يظل بمفرده؛ لذا سوف يغني ويعمل.

لكن الأرض اهتزت مرة أخرى!

هنا توقف عن الغناء ونظر إليهم، هنا توقفوا، ألقوا كل شيء كان في أيديهم وهرعوا إلى الخارج، وكان هو في أثرهم.. الكهف ينهار فوق رءوسهم، هذه حقيقة، الفرار الجماعي كالجاموس في البراري.

في تلك الواقعة، كان انهيار منزل بالكامل على شارع (دينفر روشيه)، وقام الملك (لويس السادس عشر) بتعيين لجنة للتحقيق في الأمر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

هنا انتفضت (ماجدة) عائدة إلى الخلف، لقد رأت كل ما قصصناه منذ قليل، لقد رأته رأى العين كأنها عاشته من قبل.. تراجعت للخلف وسقطت أرضًا، تصببت عرقًا وشعرت ببرودة في ذات اللحظة وفقدت الوعي.

هرعت (نتالي) إليها تحاول إفاقتها.

- لا بد أنها محمومة أو مريضة.

قالتها زوجة (ميشيل)، بعد أن صرخت وولولت واختبأت في أحضان زوجها، وأضافت وأسنانها تصطك:

- هل ستموت؟ هل سنتركها هنا ونرحل دونها؟

تركها زوجها، وأزاح يديها عنه، وجثا على ركبتيه، وبدأ يتحدث إلى (ماجدة) بصوت يتبدد في رأسها ولا يصل كاملًا:

- سيدة (ماجدة).. ما بك؟

- لم تكن كذلك منذ دقيقة.. هل هي لعنة ما؟

- لا أظن ذلك، لكن لا بد من إخراجها؛ حتى لا تختنق أو يفتضح أمرنا.

أخرجت (نتالي) زجاجة مياه باردة، مسحت ببضع قطرات وجه (ماجدة)، ثم وضعتها على فمها، رشفت منها القليل بعد أن بدأت الرؤية تتضح لها مرة أخرى، لقد عادت إلى عالمنا كما كانت.

- أين أنا؟

- حمدًا للرب، لقد استفاقت.

قالتها (نتالي)، وأضافت وهي تمسح وجهها ببعض الماء مرة أخرى:

- لقد سقطت أرضًا دون إنذار، وغبت عن الوعي.

دس (بيل) الخريطة التي كان يسترشد بها في سرواله، وأضاف وهو يضغط بأسنانه على الكشاف الصغير ويحاول مساعدة (ماجدة) التي أبت واستندت إلى (نتالي):

- هيا بنا حتى لا يفتضح أمرنا، هل تستطيعين النهوض والمشي؟

- نعم أظن ذلك.

قالتها (ماجدة) وهي تنهض متكئة على (نتالي)، وبدأ الجمع يتسرب إلى الخارج مرة أخرى.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

دقائق مرت حتى وصل الجمع إلى الخارج، استنشقت (ماجدة) هواء الخارج كأنها تذوقه، وأخذت تسعل كأنها كانت داخل أحد السجون ونالت حريتها.

اطمأن (بيل) على (ماجدة) وعلى باقي الجمع، وتفرقوا إلى لقاء قريب.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- 6 -

في ظلام الغرفة راقدة على ظهرها تحملق في السقف، تفكر فيما حدث لها في تلك المقابر، كانت تحاول استعادة شريط الأحداث، لكن هناك بقعة مظلمة غير موجودة بالفعل.

في حين جلست (نتالي) على فراشها تعبث بحقيبتها، وأخرجت عظمة قد سرقتها من ذلك (الكاتاكومب) ودستها خفية في حقيبتها.

دون أن تنهض (ماجدة)، أضافت وهي ترمقها بطرَف عينها:

- لقد سرقت (الكاتاكومب)!

ابتسمت (نتالي) وهي تضيف وتلوح بالعظمة في الهواء:

- لقد ذهبت إلى هناك كثيرًا لأجل أن أنال تَذكارًا أجلبه معي، ولم أجد وقتًا أفضل من وقت الإغماء الذي حدث لك كي أفعل ذلك.

- أحاول أن أتذكر ما حدث، لكن لا شيء سوى بقعة سوداء.

نهضت (نتالي) وجلست إلى جوار (ماجدة):

- حسنًا، ربما لم تتحملي ضغط الهواء أو الرطوبة الشديدة، أو لديك فوبيا من الأماكن المغلقة.

قالتها وهي تلوح بالعظمة بين يديها، ثم طوحتها فوق كومة من الملابس.

نهضت (ماجدة) كالملسوعة، وأمسكت بالعظمة كي تزيحها عن ملابسها وكان الآتي..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

العام (1348):

(فرنسا) هناك تغلي، تعج بالكثير من الأحداث والأهوال، حرب المائة عام ما زالت مستمرة، والطاعون قد ضرب البلاد بقوة.

بداية خيط الأحداث يمكن إرجاعه إلى التوتر بين كل من الملكية الفرنسية والإنجليزية، بسبب غزو النورمان لـ (إنجلترا) في عام (1066)؛ إذ استولى دوق نورماندي على العرش الإنجليزي، وهو تابع لملك (فرنسا).. نتيجة لذلك، أصبح تاج الإنجليز تحت يد سلسلة من النبلاء الذين يمتلكون بالفعل أراضي في (فرنسا)، الأمر الذي وضعهم بين أقوى رعايا الملك الفرنسي، وكان بإمكانهم الاستفادة من القوة الاقتصادية لـ (إنجلترا) لفرض مصالحهم في البر الرئيسي.. هدد ذلك بشكل خطير السلطة الملكية لملوك (فرنسا)؛ ولذلك

فقد حاولوا باستمرار تقويض الحكم الإنجليزي في (فرنسا)، في حين أن الملوك الإنجليز كانوا يكافحون لحماية وتوسيع أراضيهم.. شكل هذا الصدام بين المصالح السبب الأساسي للكثير من النزاعات بين الملكيتين الفرنسية والإنجليزية، التي استمرت طوال فترة العصور الوسطى.

الغضب في كل مكان في الشوارع والطرقات، كابوس الحرب لم ينتهِ بعد، وبعده جاء كابوس الطاعون.

السفن الآتية من جنوة في (إيطاليا) جاءت محملة بنذير الشؤم، إنه الوباء.

رباه! إن الجو ملبد بالشؤم وغيوم الوباء.

الجموع في الشوارع يتساقطون موتى، في البيوت يسقطون موتى، أهل البيت يحملون موتاهم ويلقون بهم إلى الخارج في الطرقات، آخرون يتركون المنازل ويلهبون فيها النيران، بينما صوت الرصاص يدوي في الشوارع، وصوت الصياح والصراخ يصم الآذان.

لقد غادرت السفينة من (إيطاليا) مجبرة على المغادرة إلى (فرنسا) من ميناء جنوة الرئيسي، كانت السفينة محملة بالموت الأسود، ونشرته على طول (فرنسا).

الوضع في الكنيسة كان صعبًا، البابا يقف يدعو الرب بتخفيف البلاء، نصحهم جميعًا بالاختباء، ونصحهم بإيقاف الحرب، البشر يبادون، إنها النهاية حتمًا.

إنه عقاب الله على الخطايا، لقد مات نصف سكان المدينة في مقبرة جماعية.

الفئران صارت خطرًا محتمًا، صار الكل يشك في الكل.

بدأت الشائعات تنتشر بأن الطاعون سببه أناس قاموا بتسميم الآبار لإحداث الطاعون وإبادة العالم المسيحي.

في البداية، لم تكن هذه الاتهامات موجهة إلى أشخاص من أي فئة معينة، بل كانت موجهة إلى أي شخص يبدو مشبوهًا لمجرد أنهم مختلفون أو غير معروفين، وخاصة المسافرين (مثل الحجاج) والمتسولين المعوقين، أو الأشخاص الذين في حوزتهم أي نوع من المسحوق.

ومن هنا بدأ الحكم على الجميع بالإعدام بتهمة تسميم الآبار في (أفينيون).. في الشهر نفسه، أبلغ (أندريه بينزيت)، سكرتير عمدة (ناربون) (أيمار)، عمدة جيرونا في كتالونيا، أن العديد من المتسولين قد تم اعتقالهم وتعذيبهم وإعدامهم في (ناربون) و(كاركاسون) و(غراس) بتهمة تسميم الآبار.

هذه الاتهامات تم توجيهها في النهاية ضد السكان اليهود، بعدها أصدر البابا (كليمنت السادس) إدانته لاضطهاد اليهود أثناء الموت الأسود، وأوضح أنه بما أن الطاعون صدر عقوبةً من قِبل الله نفسه، كان من الخطيئة اتهام اليهود بأنهم تسببوا في ذلك، وأعلن أن اليهود تحت حمايته.

على الرغم من عدم وجود الكثير من المعلومات حول اضطهاد اليهود خلال الموت الأسود في (فرنسا)، فقد كان عدد السكان اليهود صغيرًا بسبب حقيقة أن (لويس التاسع) قد منعهم من دخول (فرنسا)، واندلعت الشائعات السامة في اضطهادات موثقة، وعمليات إعدام جماعية في دوقية (سافوي)، وأسفرت عن مذابح في الإمبراطورية الرومانية المقدسة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ومرة أخرى انتفضت (ماجدة) عائدة إلى الخلف، وهي تحملق في (نتالي) وتضع يديها على وجهها، وتتراجع إلى الخلف بظهرها حتى التصقت بالجدار، وهي متقوقعة حول نفسها، لقد رأت كل ما قصصناه منذ قليل، لقد رأته رأي العين كأنها عاشته من قبل، تصببت عرقًا وشعرت ببرودة في ذات اللحظة، لكن هذه المرة لم يُغشَ عليها وتمالكت نفسها، لكنها نهضت لتفرغ معدتها في صندوق القمامة الذي يقبع بجوار الفراش مسكينًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- 7 -

في ذلك الوقت تحديدًا ظهر (إبراهيم فتحي)، محامٍ متقاعد في رحلة إلى (فرنسا)؛ كي يزور (الكاتاكومب).. هو يعتاد تلك الأمور، من حين لآخر يخرج من البلاد؛ كي يرى بلادًا أخرى ومعالم أخرى.

كان قد حجز كل شيء على الإنترنت، جلس يلعن التكنولوجيا وهو يدور حول نفسه في الجهاز من موقع لآخر، حتى ظهرت تلك العلامة أن (done)، لقد تم الحجز بالفعل، لقد حجز تذكرته لزيارة تلك المقابر التي يطلقون عليها (كاتاكومب).

ستكون إقامته قصيرة؛ لذا لم يحتج إلى الحجز في فندق من تلك الفنادق الفخمة التي انتشرت على صحف المواقع الخاصة بحجز الإقامة.

أعد حقيبته مسبقًا، نهض ليلًا، أعد شطيرتين من الجبن الرومي، ورشف قدح الشاي الساخن، وأغلق الباب خلفه متجهًا إلى المطار ثم إلى مقعده في الطائرة.

كانت المسافة ليست بالقصيرة؛ لذا نام فيها كثيرًا.

وصل المطار، أخرج ورقة من جيوبه، ناولها لسائق سيارة الأجرة، هز رأسه في حرارة، وانطلق به إلى أقرب أوتيل بالقرب من (دونفير).

وقفت السيارة أمام مبنى قصير، خُط على وجهته أوتيل (شارلس لو روشيرو)، تحيط به الأشجار القصيرة غير المَعنيِّ بها، من كل الجهات نوافذ زجاج طويلة متسخة محاطة بسور حديدي مزخرف.

ناول الرجل بضع أوراق نقدية، وسحب حقيبته، مر عبر بوابة حديدية صدئة وحديقة صغيرة جدًّا مهملة، ثم دلف إلى الاستقبال، قابلته فتاة رقيقة بيضاء ذات أنف حاد، وعينين زرقاوين، قبل أن تضيف شيئًا هز لها رأسه وكرشه العملاقة، وابتسم لها في بلاهة وأضاف بإنجليزيته: أريد غرفة واحدة للإقامة ليلتين فقط بسعر معقول إذا سمحت.

بادلته الفتاة الابتسامة، وبحثت في شاشتها عما يريد، ابتسمت مرة أخرى وناولته مِفتاح الغرفة بعد أن أخذت بياناته.

جاء رجل قصير بدين أسمر اللون أخذ الحقيبة و(إبراهيم) وصعد بهما إلى الطابق العلوي، هذا فندق مكون من طابقين فحسب، لكنه يكفي وسيؤدي الغرض.

فتح الرجل الغرفة وترك (إبراهيم) ورحل من حيث أتى.

دلف (إبراهيم)، ولم يفعل شيئًا سوى أنه ألقى بجسده على الفراش المهندم، ونام.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في اليوم التالي نهض (إبراهيم) على صوت جرس يشبه جرس المدرسة، نهض وعظامه تؤلمه، أخذ حمامًا وتناول فطوره في اللوبي، وذهب في رحلة إلى (الكاتاكومب).

ارتدى شورتًا وقميصًا ليس له أكمام وقبعة، هكذا يبدو مثل أهل البلاد.. وقف في طابور طويل، لكنه سرعان ما انتهى، جاء دوره وقف أمام الشرطي، بحث بجهازه عن الكود الذي تم الحجز عليه، ناوله خريطة وأضاف بفرنسية لم يفهم (إبراهيم) منها شيئًا: «اعتن بنفسك».

تخطى إبراهيم البوابة وبدأ في الهبوط إلى أسفل حيث (الكاتاكومب).

الحرارة تزداد والجو صار خانقًا بالأسفل.. يسير وأمامه فوج من الزوار ومعهم خبير مرشد يشرح لهم بالإنجليزية تاريخ (الكاتاكومب)، وقف يستمع ويشاهد العظام المتراصة فوق بعضها كي تكوِّن ذلك المبنى.

بعد دقائق شعر بالملل يتسرب إليه، حاول أن يلتقط صورًا للـ (كاتاكومب) لكن كان هذا ممنوعًا؛ حفاظًا على العظام من التلف.

سيكون عليه أن يحتفظ بكل شيء إذن في ذاكرته؛ حتى يحكي لهم في مصر عن (الكاتاكومب).. صحيح أن الأمر من دون صور سيصبح عسيرًا، لكنه مضطر.

دقيقة أخرى وانفجر كالحمار في الجمع، ممنوع كل شيء، وقلت سأفعل، لكن الصور ممنوعة لماذا؟ هذه رفات أناس لم يفعلوا شيئًا.. هذه حضارة حديثة جدًّا.

إن مقابر (كوم الشقافة) عندنا في مصر التي اكتشفها حمار أفضل منها بـ (1645645) مرة، لقد تم نحتها في الصخر، وتحوي الكثير من التماثيل الأثرية، ولا نفعل مع الزوار كما تفعلون.

ثم إنها طريقة قديمة جدًّا، لقد استخدمها (نبوخذ نصر) واعتمد في بناء سور بابل العظيم على أجساد الأسرى.

قالها وانطلق إلى خارج (الكاتاكومب) يلعنها ويلعن كل شيء، لقد أنفق كل تلك النقود وقطع كل تلك المسافة كي يرى جماجم وعظام أناس ماتوا ليس لهم تاريخ.

خرج من المكان وقرر أن يأخذ جولة أخيرة في شوارع (فرنسا) حتى المساء ثم يعود إلى الفندق، وغدًا سيرحل لا محالة، سيعود إلى مصر ويقبِّل ترابها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- 8 -

جلست (ماجدة) على الفراش تكمل إفراغ معدتها، وترتعد، وأمامها (نتالي) جلست ترتعد مجاملة لها بدورها وأضافت:

- ما بك؟

ببطء أردفت:

- في (الكاتاكومب) كان يبدو وكأنه فيلم قديم، عمال مناجم.. انهيار.. أناس يركضون هنا وهناك.. لا أتذكر كل شيء، أما الآن فلقد رأيت طاعونًا وحربًا وأشياء لا أذكرها، هي أشياء متداخلة لا أذكرها، لا أذكرها جيدًا، هناك بقعة سوداء دائمًا.

- حسنًا، لا تضغطي على نفسك.. ربما هو تأثير الضغط العصبي، ربما لأنها المرة الأولى التي...

أمسكت (ماجدة) برأسها، وقاطعتها:

- لا لا، ربما لو حدث ذلك في (الكاتاكومب) فقط لقلت ما قلت، لكن لماذا حدث هنا؟! رباه لدي صداع رهيب.

قالتها ومالت بجسدها لتستلقي على الفراش، ثم رن جرس هاتفها، تناولته (نتالي) من أمامها، رأت الشاشة، إنها باللغة الإنجليزية، تتعتعت قائلة: «دادي».

تناولت (ماجدة) الهاتف ووضعته على أذنها:

- ألو.

- أين أنت يا (ماجدة)؟ والدتك في المستشفى بسببك، لقد حكى لنا زوجك كل شيء، لماذا تغلقين هاتفك؟ لماذا لم تعودي إلى مصر فور ما حدث؟ لماذا لم تخبرينا بكل شيء؟!

نهضت فزعة، ولم تلق بالًا لما قال، ولم تبحث عن أية إجابة لكل تلك الأسئلة، فقط أضافت:

- ماما في المستشفى؟! سوف أحضر، الهاتف كان مغلقًا وعندما عدت وضعته على...

هنا قاطعها دون كلمة أخرى:

- غدًا تعودين إلى (القاهرة) وإلا...

وانقطع الاتصال، لقد فرغ الشحن الخاص بهاتفها، ألقته بعيدًا وأمسكت رأسها وهي تبكي كالأطفال.

دقائق وخرجت (نتالي) وهي تركض من غرفتها وتغلق هاتفها المحمول، لقد اكتشفوا أمرنا يا (ماجدة) هلمي كي ترحلي، لقد عرفوا أننا دخلنا السراديب دون تصريح، لقد أخبرني (بيل) أنهم ألقوا القبض على الزوجين، عقوبتي أعرفها، الغرامة، هذا أقصى شيء، أما أنت فلست من أهل البلدة؛ لذا ارحلي، قالتها وهي تضع أي شيء أمامها من ملابس لـ (ماجدة) داخل حقيبة صغيرة.

لم تفهم (ماجدة) شيئًا، فقط سمعت طرقات على الباب طرقات كادت تحطم الباب، أبدلت ملابسها في دقيقة وأخذت حقيبتها وهرعت إلى خارج الدار.

من الباب الخلفي رحلت عن (نتالي)، رحلت إلى الأبد، ونسيت هاتفها ونقودها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تسير في الطريق تبكي كالأطفال، تجلس على الرصيف لتكمل بكاءً أمام مطعم شرقي، تشم رائحة الشواء، تنهض وتتقدم ببطء تقف أمام الزجاج، ليس لديها ما يكفي من نقود، لقد نسيت كل شيء هناك في منزل (نتالي)؛ لذا لن تتحمل وجبة واحدة من هذا المطعم؛ لذا عادت مرة أخرى وجلست أمام باب المحل.

خرج موظف الاستقبال مبتسمًا وبدأ يتحدث إليها، هي لا تفهمه جيدًا، حين حاول وضع يده على كتفها صرخت وناولته بالحقيبة على أم رأسه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- 9 -

كان (إبراهيم) داخل ذلك المطعم الذي يقدم أكلات شرقية أصيلة، حين سمع تلك المشاجرة بين فتاة وموظف الاستقبال أمام المطعم، حين تناهت إلى أذنيه كلمات لا تخرج إلا من فتاة مصرية أصيلة.

ترك طعامه وخرج كي يرى ما هنالك، وجد (ماجدة) تنهال على موظف الاستقبال بحقيبتها الصغيرة على رأسه.

أمسك الحقيبة، وبدأ يتحدث إليها، ويهدئ من حدة الموقف.

أنا مصري، اسمي (إبراهيم فتحي)، لا داعي للقلق. اعتذر لموظف الاستقبال وناوله بعض الأموال، ثم اصطحبها إلى الداخل.

جلست أمامه وعيناها تذرفان دموعًا وحدهما.

«ما بك؟ ما اسمك؟ ما الذي أتى بك إلى (باريس)؟».

أسئلة كثيرة دارت في رأسه أراد أن يسألها كلها، لكنه عدل عن كل شيء، فقط طلب النادل وطلب لها وجبة وعصيرًا.

أخذ ينظر إليها ثم أضاف:

- أنا (إبراهيم فتحي).. محامٍ من مصر من المقطم.. أتيت كي أزور (مقبرة القديسين) (الكاتاكومب)، وليتني ما فعلت، لم أجد ما أريد، الكثير من العظام والجماجم.

هنا بدأت تضع حقيبتها على المقعد جوارها، ناولها منديلًا أخذته، مسحت عينيها وأنفها الذي يسيل، ثم بكت مرة أخرى.

- ما بك؟ هل قلت شيئًا ضايقك؟

- لا.. لا شيء أنا فقط تائهة، لا أعرف أحدًا هنا، لا نقود معي، لقد تزوجت وجئت هنا مع زوجي، طلقني وعشت مع صديقة فرنسية، ثم جاءت الشرطة وكادت تقبض علي وهربت.

- لماذا؟ هل فعلت جرمًا يعاقب عليه القانون هنا؟

- لا أعلم.. لقد ذهبت معهم إلى تلك المقابر التي تحدثت عنها الآن (الكاتاكومب)، لكننا لم نحجز، لقد ذهبنا إلى هناك عبر المجارير.

- مم.. فهمت.. دون تصريح.

وضع النادل الطعام أمامها، نظرت إلى (إبراهيم)، فابتسم وأضاف لها وهو يشير إليها:

- كل هذا لك لقد عزمتك.. تقصدين أنك تسللت إلى الداخل مع صديقتك تلك.

- لا ليست هي فقط، كنا خمسة يطلقون على أنفسهم (الكلالافوت).

- تقصدين (الكاتافيل).

- نعم هو كذلك.

قالتها والطعام يملأ فمها، ثم نظرت إليه وأضافت:

- كيف عرفت اسمهم؟

ابتسم بدوره ورشف من كوب العصير:

- أنا باحث في كل شيء غريب، صحيح أنني محام، لكنني أحب كل ما هو غريب وغير طبيعي، هناك أوقات أدرس فيها باراسيكولوجي وعلم الميتافيزيكس أو الميتافيزيقا، ما وراء الطبيعة أقصد.

- مممممم.

قالتها وتذكرت شيئًا حدث لها حين زارت المقابر، وحين جلست مع (نتالي) في غرفتها، فكرت أن تتحدث وتحكي له كل شيء، لكنها عدلت عن الأمر.

أنهت طعامها، وشكرته، ثم أضاف هو وهو يضع الأموال مضيفًا إليها البقشيش تحت الصحن الفارغ، سنكمل حديثنا في الطريق.

- أي طريق؟

- طريقنا إلى الفندق، سوف أحجز لك غرفة معي في نفس الفندق حتى تعودي إلى (القاهرة).

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عاد (إبراهيم) إلى الفندق ومعه (ماجدة)، نظرة تشكك من فتاة الاستقبال، بعدها حجز لها غرفة إلى جواره، ودلف إلى غرفته بعد أن اطمأن عليها.

أبدل ملابسه وغاب في سبات عميق.

أما عن (ماجدة)، فوضعت حقيبتها إلى جوارها ونامت بملابسها كالجِوال، وتعالى صوت شخير ينم عن تعب وإرهاق شديدين.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(فرنسا) قديمًا..

عندما نتحدث عن (فرنسا) في ذلك الزمان، فنحن نعني المناطق الشمالية منها، حيث كان الجنوب الفرنسي المتمثل في (أوكتانيا) مستقلًّا عن الشمال، ورغم أن الهرطقة الكاثارية لم تهدد الكنيسة الكاثوليكية في الشمال كما هددتها في الجنوب، فإن الحروب الصليبية التي شنتها الكنيسة على الجنوب، دفعت الكثير من المهرطقين إلى الفرار للشمال طلبًا للأمان، وكان (لويس التاسع) ملك (فرنسا) آنذاك شديدًا وحريصًا كل الحرص على تطهير بلاده من المهرطقين، فكان يقول إن التعامل مع المهرطق يكمن في إغماد السيف في قلبه.

الآن ترى (ماجدة) مجموعة من المهرطقين يشكلون رابطة كأنها الهجرة، أتوا من كل حَدَب وصَوْب؛ كي يعترفوا بذنوبهم ويكيلون الاتهامات لبعضهم البعض.

من يحكم في تلك القضايا هو المحقق (روبرت)، إنه يحرق أي شخص مشتبه به، لقد جاب البلاد طولًا وعرضًا، ونشر فيها الرعب والفزع، لقد أحرق الكثيرين.

إنها الآن تُهرَع في الضاحية، ترتدي ثوبًا طويلًا مفتوحًا صدره من الأمام، وترتدي إيشاربًا خفيفًا تربطه بإهمال واضح، ملابسها متسخة، أمامها رجل يرتدي ملابس توحي بأنه من الحطابين، وفي يدها تمسك طفلًا صغيرًا يضع إصبعه في أنفه ويضحك في بلاهة.

هذا ليس عصرنا، وهذه ليست هي، هذا واضح، لكن من هي؟ ولماذا أتت في ذلك الزمان؟ لقد رحلت عن عالمنا مرتين قبل ذلك، لكنها لم تدخل إلى تلك الدرجة!

تهمس للرجل الذي لا بد أنه زوجها:

- (دوراند).

دون أن يلتفت إليها، يهمس بدوره وهو يرقب تلك الدورية من دوريات (روبرت):

- صه يا (مارجريت).. سوف يسمعوننا.

انتظر حتى مرت الدورية وأشار بيده فتبعته، سيصلون إلى الميناء بعد قليل، سوف يكون كل شيء على ما يرام.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الآن ترى شيئًا آخر:

في ذلك القصر يجلس القس وأمامه مجموعة من المحققين، هي ترى كل هذا رأي العين.

تلك الجلسة مهمة على ما يبدو، وإلا لما أتت إلى هنا.

القس يلوح في الهواء، ثم يهمهم قائلًا:

- لقد استخدمت معها الرأفة وأحرقت كتابها، لا أعلم كيف تكتب تلك الفلاحة كتابًا كهذا؟! لقد فتنت (فرنسا)، لا بد أن تجدوها، لا بد أن تجدها يا (جوليم).

ينظر محقق كبير في السن إلى ورق محترق من أعلى ويضيف:

- هذا لو وصل إلى أسقف (شالون) فسوف يذيع صيتها في (باريس) بالكامل.

افرضوا دوريات كثيرة في كل البلاد حتى تجدوها هي وزوجها وولدها.

- سوف نفعل سيدي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تعود (ماجدة) الآن إلى جسد السيدة التي علمنا أن اسمها (مارجريت)، وما زالت تلك السيدة تتسلل بين الضواحي أمامها زوجها، تصرخ في زوجها وهي تقبض على يد ابنها:

- إنهم هنا!

تصرخ وتركض ممسكة بيد ابنها تاركة زوجها الذي انقض على المجموعة وأخذ يكيل لهم الضربات، لكن كما نعلم الكثرة تغلب الشجاعة، لقد سحقوه تحت أقدامهم، وصاروا هم من يكيلون له الضربات والركلات، حتى امتلأ وجهه بالدماء.

كبلوه من يديه وقدميه، واقتادوه إلى السجن.

أما أحد هؤلاء العساكر فقد ترك الجمع وهرع خلف (مارجريت)، يركض وتركض، اختبأت خلف أحد المراكب الخشبية التي يتم ترميمها، ووضعت يدها على فم ابنها كي تسكته، حتى يمر من أمامهما، رفع سيفه وبدأ في البحث، بدأ يجوب المكان فاحصًا إياه، تسللت وألقت بولدها داخل المركب، ثم تبعته وألقت بجسدها لداخل المركب، ادَّثَّرت ببعض الأغطية وبدأ الجو يمطر.

أغمضت عينيها ونامت ونام طفلها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

نرى الآن زوجها وهم يكيلون له الضربات يمينًا ويسارًا، يسألونه عن زوجته عن كتابها، عن وجهتها التي ستذهب إليها، يفتح فمه ويبصق دمًا، ويضيف:

- لا أعلم، ربما رحلت عنكم إلى الأبد.

عصا رفيعة يمسكها أحدهم ويدنو من عينيه، لا بد أنه يعشق عينيه ولا يريد أن تذهبا بلا رجعة؛ لذا يصرخ معترفًا:

- إنها الآن في طريقها إلى (جون) أسقف (شالون).

يبتسم المحقق الكبير (جوليم)، وينظر إلى القس الذي يبتسم بدوره وينظر إليه نظرة ذات معنى.

يخرج ويمتطي فرسه، وخلفه مجموعة من الجنود يتبعونه.. إن طريقه الآن إلى الشاطئ.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تنهض (مارجريت) على ضوء الشمس، تفتح عينيها ببطء، وتتحسس ابنها وتجعله ينهض بدوره، تهبط بتؤدة من المركب وتتلقف ابنها، تحاول الركض، لكن الوحل يعيق حركتها وحركة ولدها.

لقد فرضوا الحظر الكَنَسي عليها، إنها مطلوبة الآن في تلك البقعة، ويبحثون عنها في كل حدب وصوب.

بيت (جون) قريب من هنا، هي تعلم ذلك، لقد أتت إليه قديمًا يومًا ما، وقد علمت وقتها أنها ستعود قريبًا، قريبًا جدًّا.

تتحسس خصرها، إذن الكتاب ما زال موجودًا، تدنو من البيت ببطء.. تبتسم لقد وصلت لمبتغاها.

تلقي بنفسها على الباب وتدقه بكل قوتها التي استجمعتها، يفتح رجل في العقد الثالث، لكن في آخره تمامًا، يتلقفها ويدخلها ويدخل ولدها، ينظر يمينًا ويسارًا كي يعلم أن هناك من يتبعها أم لا، ثم يغلق الباب ويوصده.

تجلس بالقرب من النار، وتخرج كتابها، وهي تضيف:

- لقد أمسكوا زوجي، ربما قتلوه الآن.. إن الروح التي يغمرها الحب الإلهي لا تتدنس.

تراااااااااااااااك.

يتحطم الباب بأكتاف الفرسان، وخلفهم يقف (جوليم) المحقق الكبير الذي تولى قضية (مارجريت)، يحثهم على المواصلة، حتى تهاوى الباب، ولم يعد صامدًا.

انتشر الجمع داخل بيت الأسقف، ألقوا القبض على (مارجريت) والأسقف، واقتادوهما إلى ساحة المحكمة.

تم الحكم عليها بالإعدام، وسط حشد من الذين ذرفوا الدموع عليها بسبب وفائها النادر لمبادئها، كان تحترق وكانت آخر كلماتها هي «الروح التي يغمرها الحب الإلهي لا تتدنس، ولو كانت غارقة لأذنيها في الخطيئة».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- 10 -

نهضت (ماجدة) مفزوعة وهي تتصبب عرقًا، الغرفة مظلمة إلا من ضوء الأباجورة الخافت، تنظر إلى جوارها تجد طفلًا صغيرًا يقف يحملق فيها ويبتسم، ويلقي جسده الصغير بظلاله على الجدار!

تصرخ بفزع وتتراجع إلى الخلف على الفراش، يتركها الطفل ويهرع إلى الخارج، تطل برأسها إلى الخارج كي تراقب ما يحدث، تجده يركض خارجًا من الغرفة تاركًا بابها مفتوحًا خلفه!

من أين أتى؟ وإلى أين عاد؟ هي لا تعلم.

تنهض بتؤدة متتبعة إياه، حافية القدمين، الطرقة طويلة، تدهس بقدمها السَّجاد المفروش بطولها وتسير ببطء باحثة عنه، هناك غرفة مفتوحة، لا بد أنه دخلها.

تسير حتى تصل إليها، تطل برأسها وهي تضيف:

- من هنا؟ هل أنت هنا أيها الطفل؟

- ...

لا رد.

تدلف إلى الداخل، الغرفة مظلمة.. هل من أحد هنا؟

- ...

لا رد.

يخرج طفل من خلف الستارة يقهقه، ثم يختبئ خلف الستارة مرة أخرى!

تهرع إلى الستارة وتزيحها، لا تجد شيئًا!

قلبها يدق بعنف، هنا تسمع قرع نعال أحدهم، إنه يدنو من الغرفة، تختبئ أسفل الفراش، ويدخل صاحب الغرفة، يدخل إلى الغرفة يخلع ثيابه، ترمقه وهو يدخل إلى الحمام، فتزحف من تحت الفراش حتى تصل إلى باب الغرفة، تستند بيدها إلى الأرض وتنهض وتهرع إلى الخارج، إلى غرفتها، تصطدم بـ (إبراهيم فتحي) الذي يجرها من يديها ويدخلها إلى غرفته.

يدق قلبها بعنف، يجلسها على أقرب مقعد، وبصوت مبحوح:

- لم دخلت إلى غرفته؟ لقد رأيتك، هل أنت لصة؟

- بالطبع لا.

قالتها وهي تنهض ساخطة على كلماته، فأمسكها مرة أخرى من يدها وأجلسها، ثم بدأت تبكي.

- سوف أحكي لك كل شيء سيد (إبراهيم).

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بعد دقائق كان (إبراهيم) يجلس أمامها، يرشف القهوة ويدون بعض النقاط في ورقة صغيرة، وصار يعرف كل شيء مما قرأناه، لقد حكت له كل شيء تقريبًا منذ أن أتت إلى (فرنسا) مع زوجها، مرورًا بما حدث في (الكاتاكومب)وكوابيسها المتتالية، حتى دخولها الغرفة خلف الطفل ومجيئها هنا.

جلس يفكر مليًّا ويرشف قهوته ويحدق في (ماجدة) التي جلست بعين حمراء تحكي كل شيء، رشف مرة أخرى ثم قاطعها قائلًا:

- دعينا نفكر سويًّا حتى نجد حلًّا لما يحدث، ليس من عادتي أن أنغمس في ضلالات، لكن لي خبرة ولو بسيطة في مثل تلك الأمور، لكن قبل كل شيء دعينا نفسر ما يحدث على أنه هواجس، هواجس نتيجة لإرهاق واضح وضغط نفسي وعصبي تمرِّين به هذه الأيام، هذا تفسير جيد لما يحدث.

- سوف أعود إلى مصر وفقط، لا أريد حلًّا، أنا في كابوس وسوف يمر، عندما أعود سوف يكون كل شيء على ما يرام.

قالتها كأنما تأمره بأن يخرس، وأنه حلوف لا يفهم شيئًا ويهذي، ولا يصدق حرفًا واحدًا، الحقيقة هي أنه كان يصدقها، لكن كي يجد تفسيرًا أو بالأحرى كي يعطي لها تفسيرًا واضحًا يفسر كل شيء، فهذا هو الأمر الصعب.. حقيقة هناك تفسير ثان، لكنه صعب التصديق، وهو الأقرب لها، لكن التفسير الأول الذي أخبرها به كان هو الأقرب له، أفاق من خواطره ثم رشف ما تبقى من ثمالة الفنجان، وأردف:

- حسنًا.. عودي الآن إلى غرفتك، وسوف يكون كل شيء على ما يرام كما قلت، وغدًا لهو يوم آخر.

قالها، فنهضت وخرجت متجهة إلى غرفتها، نظرت إليه ودلفت وأغلقت الباب، وجلست خلفه تبكي.

ودق الباب!

نهضت، مسحت عينيها وفتحت الباب، لم تجد أحدًا!

نظرت إلى نهاية الطرقة فلم تجد أحدًا، وجدت باب الغرفة إياها مفتوحًا!

ثم لمحت الطفل يقهقه ويهرع ليدخلها ويختفي هناك في ظلامها!

سارت حتى وصلت إلى غرفة (إبراهيم)، وطرقت الباب، فتح (إبراهيم) وهو يتثاءب، عدل من سرواله وأدخلها مرة أخرى.

حكت له للمرة الثانية كل شيء في عجالة، ثم أردفت:

- حقيقة لا أدري ما سبب مجيئي إليك، ولا أدري لماذا أقص لك كل شيء، أنا أشعر أنني طفلة مذعورة أريد أن أعود إلى والدي.. ليس لي أحد ولا أعرف هنا أحدًا سواك، ولقد وثقت بك.

وضع (إبراهيم) كوبًا من العصير أخرجه من ثلاجة صغيرة أمامها، وهو يضيف:

- اشربي هذا واهدئي.

- أنا لست على ما يرام حقًّا.. هل.. هل تمانع أن أبيت لديك اليوم؟

حك (إبراهيم) مؤخرة رأسه ولم يدر ما الذي يفعله، لكنه أومأ برأسه في غباء ودلف إلى غرفته (لم تترك له مفرًّا).. أحضر ملاءة ومخدة وضعهما على الأريكة معلنًا عن أنه سوف ينام في الخارج، وأنه قبل الدعوة.. تركته ودلفت إلى غرفة النوم.

ألقى (إبراهيم) بجسده على الأريكة وجلس يفكر فيما قالته، يفكر في تفسيره الثاني، فإن كانت صادقة فيما قالت فهذا يعني أن ما يحدث قد خرج من نطاق الطبيعي إلى ما وراء الطبيعي، نهض وأحضر ورقة وقلمًا وبدأ يخط بعض الخطوط، وفتح اللاب توب الخاص به وبدأ يبحث فيه، هو أخبرها بتفسير جيد يصلح (هي هواجس نتيجة لإرهاق واضح وضغط نفسي وعصبي تمر به)، لكن الأقرب هو التفسير الثاني الذي جلس يبحث عنه بالأدلة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الآن نحن في (فرنسا) مرة أخرى، لكن تلك المرة في عام (1871) تحديدًا.

كان المشهد شنيعًا ومروعًا، تلال مترامية، عشب أصفر اختلط باللون الأحمر القاني، لون الدماء، جثث في كل مكان، صوت صهيل الخيل، والمدافع التي ترج الأرض رجًّا، رصاص البنادق يدوي في الأفق.

رائحة البارود في كل مكان، الجو معبق بالدخان، والجثث المبتورة، هناك الكثير من الجنود تراهم في كل مكان!

هي الآن وسط المعركة، لكن أية معركة تلك؟!

الأصوات تتعالى حولها بلغة فرنسية بحتة، بنادق عتيقة يحشوها الجميع ثم يطلقونها في كل صوب.

صوت العَبَّارات والسفن يدوي كذلك معبرًا عن وجودها في البحر، مدافعها تلقي بخبيئتها على الأرض فترتج الأرض لها.

ترى كل ذلك وترى جنديين يركضان خلفها، تهرع خلفها، تنظر إلى يديها فتجد نفسها ممسكة ببندقية عتيقة وسيف صغير، مع من تتقاتل؟ ومع من تقاتل؟ هذا سؤال وجيه، لكن ليس له أية إجابة الآن وليس وقته.

بحركة متمرس صدَّرت خشبة بندقيتها في وجه أحدهم، فتلقى الضربة وطار في الهواء إلى الخلف، ونام على ظهره إلى الأبد.. لوح آخر بسيفه فمالت إلى أسفل وضغطت على البندقية لترديه قتيلًا برصاصة عتيقة.

فعلت ما فعلت، ثم انطلقت تجري وسط الخنادق والأعشاب، حتى وصلت إلى خندق فيه أناس يرتدون مثلها تمامًا، تلقفتها إحدى النسوة وأدخلتها إلى الخندق، أجلستها على حجر، وبدأت في معالجة جرح في حاجبها.

- (أوليف) لقد تلقيت ضربة قوية في حاجبك، لا بد أن أولاد الـ ... لا يريدون سوى الهلاك، لا تقلقوا نحن أكثر عددًا من هؤلاء الـ ...، العيش لـ (ألمانيا) والموت لـ (باريس).

قالتها الفتاة التي تداوي جراحها، فعلمت من الحديث أنها المانية، أو هي مقاتلة في الصفوف الألمانية.

تدور بعينيها في الخندق، ترى علمًا يلصقونه بالمدخل، هذا ليس علم (ألمانيا) الذي نعرفه الآن.

هي تحارب في صفوف أناس لا تعرفهم، وفي دولة لا تعرف عنها شيئًا، وحرب لا تملك عنها أية معلومات.

صرخ أحدهم، فأفاقت من خواطرها لتجده يقول بلغته الألمانية التي لا تفقهها، لكنها هاهنا مِن أهلِها:

- الجيش على أعتاب الانتصار.. لقد تقهقروا بالفعل.

وبالفعل كانت هزيمة فادحة للفرنسيين في أرض المعركة وميادين القتال، حتى إن الميمنة -التي قادها الجنرال (ماك ماهون) والتي صحبها (نابليون) نفسه، وبعد تراجعها الغريب- ارتأت الفرار من القتال والتوجه لمساعدة الجنرال (بازاين) قائد الميسرة، لكنهم أحيطوا بالألمان ووقعت محاصرتهم، فكان أن اشتبكوا في معركة سيدان قرب مدينة (سيدان)، وكانت معركة كارثية بحق على الفرنسيين استسلم فيها (نابليون) و(ماك ماهون) كلاهما معًا، فانهارت العسكرية الفرنسية وتمزقت إربًا.

الآن ترى الجثث وهم يكومونها ويلقونها داخل أحد الخنادق فوق بعضهم البعض.

ثم.. شهقت ونهضت مفزوعة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- 11 -

في الصباح نهضت وخرجت من غرفة النوم لتجد (إبراهيم) نائمًا وحوله أوراق ولاب توب مفتوح، لسانه يتدلى كالموتى، ويطلق شخيرًا يوقظ الأموات ويسمعه الجان، دلفت إلى الحمام، ارتدت ثيابًا نظيفة، حاولت إيقاظه فنهض بعين حمراء كجثة لفظها النهر، تثاءب ووضع يده على فيه، وهو يقول: - هل نمت جيدًا، أم زارك ذلك الطفل مجددًا؟

ابتسمت وهى تضيف:

- لا، لم يأت إلي، بل أتى إلي جيش بأكمله!

لم يكترث لحديثها، ونهض وهو يضيف مرتديًا عويناته:

- سوف نعود اليوم إلى (القاهرة)، وسوف يكون كل شيء على ما يرام.. لقد حجزت لنا تذاكر العودة في المساء.. مساء اليوم.

قالها وهو يناولها هاتفه كي ترى موعد الرحلة، ثم أضاف وهو يبدل عويناته بعوينات القراءة: - دعينا نترك كل شيء الآن ونهبط؛ كي نتناول الفطور، وكي أتحدث معك في شيء هام.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

على منضدة صغيرة جلس الاثنان يتبادلان أطراف الحديث، وضع (إبراهيم) اللاب توب أمامه وبضع قصاصات انتقى منها واحدة ملأها بالكثير من الحبر، وأضاف: - أعلم أن ما سأقوله لك ربما يكون جنونًا، صحيح أنني ترددت في أن أصارحك بما توصلت إليه، لكن للأسف لا وقت لدينا سوى نهار اليوم، نهار هذا اليوم فحسب.

تناولت شطيرة أخذت تلوك منها، وأضافت:

- أنا لا أفهم ما تقول.

رشف من قدحه وأضاف:

- أقصد أن هناك تفسيرًا آخر لما يحدث لك.

- تفسير آخر؟!

- نعم.

قالها وهو يناولها قصاصة الورق، ويخرج خمس ورقات صغيرة أخرى خط بها رسومات بقلم فلومستر أزرق اللون، وضعها أمامه على المنضدة، وأردف: - في اعتقادي الراسخ أنه لا يوجد دليل على ما نطلق عليه الأرواح والأشباح،

ولكن هناك أكثر من دليل على وجود أمراض الهلوسة، فهناك من يقسم أنه قد جلس مع الشيطان ذاته، أو أن حوض الاستحمام يعج بالثعابين، لكن أنا أقدر ما قلتِه بالطبع، وأعلم أنك صادقة؛ لذا سأحاول المساعدة.

رتب الأوراق وضمها إلى بعضها وتناولها في يديه، وأضاف: - ربما بالفعل كنت مختلفة.. لذا.. هل تعرفين بطاقات زينر؟

- لا.

- حسنًا، كنت أتوقع هذا.

قالها وفرد الأوراق على وجهها أمام المنضدة وأضاف:

- أنا لست حاويًا بكل تأكيد، لكن سنحاول إثبات شيء بتلك البطاقات، صحيح أنني لا أحمل واحدة منها، لكنني استعضت عنها بتلك الأوراق، فليس من عادة المرء أن يسير حاملًا في جيوبه بطاقات للكشف عن الإدراك الفائق للحواس.

قالها وأردف:

- سوف أحاول أن أشرح الأمر أكثر، هذه البطاقات بها رسومات، وعليك أن تخمني ما بها هنا، لقد رسمت عليها بالقلم الفلومستر كي تبدو واضحة.

وضع كفه الأيمن على ورقة من الأوراق، ونظر إليها:

أغمضت عينيها كأنها تعتصر رأسها، ثم قالت:

- لا شيء لا أعلم، لا أستطيع أن أرى شيئًا مطلقًا، ربما لو خمنت.

- لا، الأمر هنا ليس له علاقة بأي لعبة من أي نوع، لو رأيت شيئًا فأخبريني، لو لم تري شيئًا فأخبريني.

مرة أخرى تعتصر رأسها، ثم انفجرت:

- لا، لا أرى أي شيء.

- حسنًا.. دعينا نفكر بهدوء، بما أن ما حدث لك لم يحدث لك منذ صغرك، ولم يحدث لك إلا هنا، تحديدًا داخل (الكاتاكومب) حيث الكثير من الموتى...

- نعم.. فقط وضعت يدي على إحدى العظام، وكان هذا كافيًا كي أرى كل شيء.

هنا قفز (ابرهيم) من على مقعده وهو يضرب المنضدة بقبضته كي يسكب كوب الماء على سرواله، لكنه لم يبال وأضاف: - حسنًا، هذا كافٍ، لقد كنت أبحث معك في منطقة خطأ.

أضافت متعجبة:

- منطقة خطأ؟! أنا لا أفهم ما تعنيه.

أعاد ترتيب الأوراق مرة أخرى ووضعها أمامها تمامًا، وقال: - لو حدث ما تحكين فعلًا، فلا بد لك أن تضعي يدك على البطاقة أولًا، ثم تخبريني بكل شيء.

نظرت له نظرة ذات معنى، ووضعت كفها على الورقة الأولى.

لقد رأت الورقة، لقد رأتها في يد (إبراهيم) وهو ممسك بقلم فلومستر يخلع غطاءه بفمه ويخط دائرة داخل الورقة!

أزاحت يديها من فوق الورقة وهي تحدق في (إبراهيم)، وتضيف: - لقد رأيتك وأنت ترسم دائرة داخل الورقة.

مد (إبراهيم) يديه وقلب الورقة ليجد دائرة قد رسمها بالفعل.

- لقد رأيتك وأنت ترسمها!

- رأيتني؟!

- نعم.

لملم (إبراهيم) الأوراق، وأضاف:

- هذا ما خمنته.

قالها وأردف:

- لا شك أن ما حدث معك داخل (الكاتاكومب)، وما يحدث الآن معك هو نوع من أنواع القدرات الفائقة للحواس، هناك أنواع كثيرة من تلك القدرات، لكن أقرب شيء لما يحدث لك هو الجلاء السمعي أو التكهن النفسي، لنقُل تواصل الطاقة.

- لا أفهم شيئًا مما تقول، وببساطة هذا بالنسبة لي هراء.

هرش في رأسه مجددًا، ورشف من فنجان القهوة، ثم أضاف: - هذه مشكلة علم الباراسيكولوجي، كثيرون هم من لا يفهمونه ولا يقتنعون بنظرياته، برغم كل المحاولات والجهود التي بذلها العلماء، إلا أنه لا يمكن الإمساك بحقائق مثبتة.. باختصار أنت لديك قدرة فائقة للحواس، لم تظهر إلا عندما تمت استثارتها في (الكاتاكومب)، حيث احتشد بداخله أرواح الكثير من الموتى.

- حسنًا، هل هناك ما سيثبت لنا ذلك أو ينفيه؟

- هذا بالفعل ما توصلت إليه بعيدًا عن أنك تهلوسين أو أنها هواجس نتيجة لإرهاق وضغط نفسي وعصبي تمرين به هذه الأيام.

قالها وابتسم مداعبًا، ثم رشف رشفة أخرى وقضم من شطيرة محشوة بالجبن.

ابتسمت هي الأخرى ورشفت من كوبها، ثم أضافت:

- وما هو ذلك الشيء الذي سيثبت نظريتك تلك أو ينفيها؟

- هذا هو ما جعلني أقول إنه ليس لدينا سوى نهار هذا اليوم فحسب؛ لأننا سوف نرحل عن هنا اليوم مساءً، فلا وقت لدينا للذهاب إلى مكتبة دوفيليه الكبيرة، وسوف نبحث عما رأيتِه داخل الكتب التاريخية التي تتحدث عن تلك الوقائع التاريخية في هذا البلد.

- هذه فكرة جيدة بحق، ومتى سنذهب؟

- ننتهي من الإفطار ونغادر الآن، ليس لدينا وقت كما أخبرتك.

قالها وهو ينظر إليها وهي تحملق في رجل يجلس على الطاولة المقابلة: - لماذا تحدقين في الرجل هكذا؟

- إنه ذات الرجل الذي دخلت غرفته وهربت منها قبل أن يراني.

كان رجلًا يبدو فظًّا، وجه عريض، جمجمة كبيرة، ويد كبيرة بدورها، شارب يغطي فتحتَي أنفه، ربما لو وددنا شرح نظرية لمبروزو في الجريمة لقلنا إن هذا الرجل هو المثال الحي لتلك النظرية وإثباتها.

- هذا الرجل وراءه سر.

- ربما نعم وربما لا، وكل ما نسجتِه في خيالك ليس سوى هلاوس سمعية.. على كل حال لا بد أن ننهي كل شيء ونكون في المطار في العاشرة مساءً.

- حسنًا، لنذهب إذن.

قالها ونهض فتبعته بدورها، أوقفا سيارة أجرة وانطلقا بها إلى المكتبة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وقفت السيارة أمام المكتبة، دلفا إلى الداخل، اتجهت هي إلى أمينة المكتبة مسرعة، أضافت بتوتر وبإنجليزية مقبولة: - أريد كتابًا عن المقابر الجماعية في (باريس)، تحديدًا (الكاتاكومب).. أريد كتابًا يحكي كل شيء عنها.

نظرت الفتاة إلى (إبراهيم) الذي حياها بإيماءة صغيرة، وعدل عويناته ومسح عرقه بمنديل ألقاه في سلة المهملات، وأضاف: - نريد كل الكتب التي تحدثت

عن (كاتاكومب فرنسا)، عن تاريخه، وأريد أيضًا كتبًا قيمة تتحدث عن تاريخ محاكم التفتيش في (فرنسا).

- كل هذا ستقرآنه الآن؟! حسنًا ما دمتما تريدان ذلك!

قالتها وعبثت أمامها في اللاب توب، ثم أضافت وهي تشير إلى مكتبة خشبية عملاقة على يمينها: - هناك ثلاثة كتب ربما بها ما تريدان، هناك في الرف الثالث في الوسط، تحديدًا الكتاب الحادي والعشرون.. وفي الصف الخامس والسادس الكتاب الرابع والعاشر من أسفل.

- أشكرك.

قالتها (ماجدة) وتركتهما راكضة واتجهت إلى المكتبة التي أشارت إليها الفتاة، سحبت مقعدًا صغيرًا صعدت عليه، مررت أصابعها بين الكتب، أمسكت مجلدًا ضخمًا وأخرجته بصعوبة من وسط الكتب، هبطت وجلست إلى أقرب منضدة؛ كي تتصفحه، مرت بأصابعها على الفهرس حتى وصلت إلى نطقة معينة تريدها، وبدأت القراءة حتى وصلت إلى تلك الصفحات الهامة في تاريخ تلك المقابر: «في القرن الثامن عشر، شكلت الأنفاق والسراديب العميقة تحت (باريس) خطرًا متزايدًا على مباني وقصور المدينة، فأغلب هذه الأنفاق كانت مهجورة، ولم يكن معلومًا على وجه الدقة إلى أين تمتد وأين تنتهي، وهذا الأمر قاد في النهاية إلى تخسفات مهولة في أجزاء عديدة من (باريس)؛ مما أدى إلى تدمير أحياء سكنية برمتها، وصار الناس مُرعَبون من أنفاق الموت المختبئة تحت منازلهم؛ ولهذا صدرت عام (1777) إرادة ملكية بوقف العمل في الأنفاق، وإغلاق وردم أجزاء كبيرة منها.

لكن (باريس) القرن الثامن عشر لم تكن تعاني من الانهيارات فقط، بل كانت مشاكلها متنوعة ومتعددة، وهذا هو ما قاد في النهاية إلى تفجر الثورة الفرنسية الكبرى عام (1789).. وإحدى مشاكل (باريس) الكبرى آنذاك كانت جثث وهياكل الموتى! فـ (باريس) مدينة قديمة، ولمئات السنين كان سكانها يدفنون موتاهم في مقابر متفرقة حول المدينة، حتى ضاقت تلك المقابر بموتاها، فتقرر حل المشكلة في القرن الثاني عشر الميلادي عن طريق افتتاح مقبرة مركزية جديدة اسمها (مقبرة القديسين الأبرياء) (Saints Innocents Cemetery)، ليدفن فيها الباريسيون جثث موتاهم.

لكن بمرور الزمن تحولت المقبرة الجديدة إلى مشكلة بحد ذاتها، فالدفن فيها كان يتم بطريقة عشوائية غير منظمة، خصوصًا بالنسبة للفقراء، حيث كانت جثثهم تكدس فوق بعضها، وغالبًا ما تدفن من دون كفن، وكان القساوسة يقومون بإفراغ القبور القديمة بين الحين والآخر، وينقلون هياكل الموتى

داخلها إلى مقابر جماعية عند أطراف المقبرة، وبهذا كانوا يفسحون المجال للمزيد من جثث الموتى الجدد.

كانت (مقبرة القديسين الأبرياء) أشبه بمقابر تراكمت فوق بعضها، حتى وصل ارتفاعها إلى أكثر من عشرة أقدام، كانت أرضها متخمة بالجثث، ولم يكن هناك متسع لموتى جدد، لكن مع هذا استمر المسئولون عنها في تكديس المزيد والمزيد.. وبالطبع فإن هذه الجثث المكدسة والمضغوطة داخل مساحات صغيرة أصبحت بالتدريج مصدر إزعاج كبير للسكان، فسوق المدينة المركزية كانت تقع بالقرب من المقبرة، ورائحة التعفن والتفسخ المنبعثة عن الجثث كانت لا تطاق، وقد امتدت هذه الروائح الكريهة إلى مياه الشرب المستخرجة من الآبار فلوثتها، ثم وقعت الطامة الكبرى حين تهدمت بعض الأجزاء من جدران المقبرة نتيجة الضغط المتراكم فوقها، فقذفت بالجثث المتفسخة والنتنة إلى الشوارع؛ مما أدى إلى تفشي الأمراض والأوبئة.

أصبحت (مقبرة القديسين الأبرياء) تشكل مصدر إزعاج كبير في قلب (باريس)، لذلك أخذت السلطات تبحث عن حل لهذه المشكلة المتفاقمة، وقد خطرت لأحد ضباط الشرطة فكرة جيدة عام (1777)، كان هذا الضابط يدعى (أليكساندر لينور)، وقد اقترح نقل جميع الجثث والهياكل العظمية الموجودة في (مقبرة القديسين الأبرياء) إلى بعض الأجزاء من شبكة الأنفاق الباريسية.. وفي عام (1785) وافقت الحكومة على خطته، فتقرر نقل المقبرة بأكملها إلى مجموعة من الأنفاق تقع إلى الجنوب من (باريس).

نَقْل الموتى من المقبرة إلى الأنفاق لم يكن مهمة سهلة، فنحن هنا نتحدث عن جثث وبقايا أكثر من ثلاثين جيلًا من سكان (باريس)، أو ما يقارب الستة ملايين من الموتى المكدسين فوق بعضهم؛ لهذا فإن عملية النقل كانت شاقة استمرت لعدة سنوات.

كانت القبور تنبش أثناء الليل ثم تنقل الهياكل العظمية في عربات سوداء ضخمة إلى الأنفاق، لتكدس هناك دونما عناية أو ترتيب، لكن في عام (1810) قام مهندس يدعى (لويس دي توري) بالإشراف على عملية ترتيب هذه العظام والجماجم، إلى شكلها الحالي الذي يراه السياح عند زيارتهم لسرداب الموتى في (باريس) (Catacombs of Paris).

العديد من الزوار قالوا إنهم أحسوا بنسمة هواء باردة تلامس أجسادهم، وبعضهم شعروا بأن شخصًا ما يمشي خلفهم ويلاحقهم، وبعضهم سمع أصواتًا خفية تهمس في آذانهم، ولا عجب في ذلك، فإضافة إلى ملايين الهياكل العظمية المكدسة في هذه السراديب، هناك أيضًا أمور مرعبة حدثت داخلها، ففي عام (1871) قام عدد من اليساريين الفرنسيين بقتل مجموعة من أنصار

النظام الملكي داخل أحد هذه السراديب، كما أن المقاومة الفرنسية والجنود النازيين خاضوا جولات من القتال والمطاردات الدموية داخل هذه الأنفاق خلال احتلال الألمان لـ (باريس) في الحرب العالمية الثانية».

أما (إبراهيم) فقد جلب كتابًا دسمًا يتحدث عن الثورة الفرنسية ومحاكم التفتيش، وكتابًا يتحدث كذلك عن أوراق الحروب الصليبية، وآخر يتحدث عن الحرب الفرنسية البروسية، ومجموعة من المجلات تتحدث عن (فرنسا) قديمًا.

بحث عن (ماجدة) فوجدها منهمكة في كتابها، ما إن رأته حتى صرخت وهي تشير إلى الكتاب: - ما رأيته قد حدث بالفعل، لقد رأيت ما حدث كأنني كنت هناك مثلما حدث مع الورقة التي رسمت بها بطاقات زنزبار.

نظر (إبراهيم) حوله فوجد الجميع ينظر إليهم، فجلس في حنق وهو يضيف مصححًا: - تقصدين بطاقات زينر.

لم تعبأ به وأشارت له كي يقرأ ما قرأته.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الحرب الفرنسية الألمانية، أو الحرب الفرنسية البروسية، ويشار لها أحيانًا باسم الحرب السبعينية (من 19 يوليو 1870 إلى 10 مايو 1871)، كانت صراعًا مسلحًا نشب بين الإمبراطورية الفرنسية الثانية بقيادة (نابليون الثالث) والولايات الألمانية للاتحاد الألماني الشمالي بقيادة مملكة بروسيا. سبب الحرب كان طموح بروسيا بتوحيد الأمصار الألمانية، وخوف (فرنسا) من تغير موازين القوى الأوربية إذا نجحت بروسيا في مسعاها.

حقق الألمان والبروسيون انتصارات حاسمة في شرق (فرنسا)، بلغت ذروتها في حصار ميتز (1870)، وفي معركة سيدان تم أسر (نابليون الثالث) وهزيمة جيش الإمبراطورية الثانية بشكل حاسم. أعلنت حكومة الدفاع الوطني الفرنسية قيام الجمهورية الفرنسية الثالثة في (4 سبتمبر) من نفس السنة، واستمرت في الحرب لخمسة أشهر أخرى. قاتلت القوات الألمانية وهزمت الجيوش الفرنسية الجديدة في شمال (فرنسا).

كفل التفوق العددي للألمان ودخولهم الحرب بأسلحة مخترعة حديثة جدًّا حينها -مثل الشسبوة والمتريوز- تحقيق الألمان لانتصار عظيم قاد لتبوُّء السيادة الأوروبية. عقب هذه الحرب التأمت مختلف الولايات الألمانية بعد انتصار الأمة، لتشكيل الإمبراطورية الألمانية، أصبح إمبراطورها هو (ويليام الأول) ومستشارها هو (بسمارك).

وأعلن قيام إمبراطورية (ألمانيا) من داخل غرفة المرايا وسط قصر فرساي، وفي قلب العاصمة (باريس) وصلت الأحداث إلى ذروتها، واقتحم الألمان العاصمة، وقتلوا الكثير، وأسروا الكثير، وأضرموا النار في أشهر رموز (فرنسا)، قوس النصر، وبذلك استسلمت الأمة الفرنسية ورضخت بتسليم مدينتي (لورين) و(ألزاس).

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

صفحات من كتاب آخر..

«واجهت (باريس) في القرن الـ (16) مشكلة حقيقة في المقابر الجماعية التي تكدست بالموتى، وسط مخاوف من تأثيراتها على الأحياء المحيطة بها.

وفي القرن الـ (18) أفرغت السلطات الفرنسية هذه المقابر الجماعية، ونقلت رفات نحو (6) ملايين شخص إلى سراديب تحت الأرض، كانت بمثابة مناجم لاستخراج صخر الجبس الكبريتي».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

صفحات من كتاب آخر..

«طاعون (مارسيليا) العظيم كان آخر حالات تفشي الطاعون الدبلي في (أوروبا)، عندما وصل إلى مدينة (مارسيليا) الفرنسية عام (1720)، حينها قتل المرض ما يصل (100,000) شخص.. قُتل (50,000) شخص داخل المدينة، وخلال العامين التاليين حصد (50,000) آخرين في شمال المقاطعات والبلدات المحيطة بها.

على الرغم من العدد الكبير من الوَفَيات، تعافت (مارسيليا) بسرعة من تفشي الطاعون.. استغرق النشاط الاقتصادي بضع سنوات فقط للتعافي، حيث امتدت التجارة إلى جزر الهند الغربية وأمريكا اللاتينية.. بحلول عام (1765)، عاد عدد السكان المتزايد إلى مستواه قبل عام (1720).

في عام (1466)، حوالي (40,000) شخص ماتوا في (باريس) من الطاعون.. خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر، زار الطاعون (باريس) حوالي سنة من أصل ثلاث سنوات.. الموت الأسود دمر (أوروبا) لمدة ثلاث سنوات قبل أن يصل إلى روسيا، حيث ضرب المرض مرة واحدة كل خمس أو ست سنوات من عام 1350)) إلى عام (1490)».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أغلقت (ماجدة) المجلد القابع أمامها، وأضافت وهي تتنهد: - أقسم أنني عشت هناك، هذه الأحداث قد عشت داخلها جميعًا.

أغلق (إبراهيم) كتابًا ضخمًا بدوره، ثم أضاف:

- هذا ما توقعناه تمامًا.. كما أخبرتك قبل أن نأتي إلى هنا، أنت لديك نوع من أنواع القدرات الفائقة للحواس، وأقرب شيء لتلك القدرة هي الجلاء السمعي أو التكهن النفسي، تواصل الطاقة، ولم تظهر تلك القدرة إلا عندما تم استثارتها، وتم استثارتها في (الكاتاكومب)، حيث تجمع أكبر عدد من الرفات وأرواح الموتى.. حيث بدأ كل شيء كما قلت أنت عندما وضعت يدك على أحد تلك الرفات.

جلست على حافَة مقعدها وقد بلغت بها الإثارة مداها، وصاحت وهي تزيح المجلدات جانبًا: - وماذا أفعل الآن؟

ابتسم (إبراهيم) بدوره وأضاف:

- لا شيء أنت تملكين موهبة، احتفظي بها ولا تفضحي أمرك؛ لأن الناس ستشك في قواك العقلية ولن يصدقك أحد.

قالها ونهضا خارجَين من المكتبة، في الطريق أضافت وهي تنظر إليه: - هذا غريب.

نظر إليها وابتسم وهو يضيف مشعلًا لفافة تبغ بنية اللون: - لقد قرأت في كتاب عن الباراسيكولوجي قصة معروفة عن مقتل أحد الأشخاص، يدعى (فرانز ماير) بالرصاص، وهو سائق أجرة في (النمسا) تحديدًا، وقد سألوه عبر الأثير: هل تعلم بأنك في العالم الآخر؟ رجاء هل بإمكانك إخبارنا عن نفسك.. هل تعرف قاتلك؟ وجاء الرد مسجلًا على شريط التسجيل بأنه شخص يدعى (دابوزيك).

وغير تلك القصة كثير.

هناك قصة عن شخص دخل متحفًا ليلًا ووضع يديه على أحد التماثيل، وفجأة ظهر أمامه تجسد لأشياء كثيرة، منها خيول وجنود يركضون في ردهة المتحف.

ألقى بما تبقى من لفافة التبغ على الأرض ودهسه بقدمه، ثم أضاف: - ما أعنيه أنك لست وحدك، هناك الكثير مثلك، هناك من تمت استثارة قواه مثلك فظهرت إلى العلن والنور، وهناك من لم يستثر، ويتم وأد تلك الموهبة.

- وماذا عن الطفل الصغير الذي أراه؟

- حقيقة لا أعلم، لا بد لنا من العودة إلى الفندق كي نحزم الحقائب، فموعدنا بعد خمس ساعات، لنأخذ قيلولة ثم ننطلق.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- 12 -

في الفندق دخلت هي إلى غرفتها، ودلف هو إلى غرفته، ألقى بنفسه على الفراش وأطلق شخيرًا يسمع الموتى.

أما (ماجدة) فأبدلت ملابسها وأعدت بعض القهوة، وجلست ترمق الطرقات من النافذة.. يا لساعة الغروب! في حين دق الباب.

اتجهت إلى الباب وفتحته فلم تجد أحدًا، أطلت برأسها كي ترى باب غرفة الرجل إياه مفتوحًا، وأمامه يقف الطفل الصغير حزينًا يمد يديه لداخل الغرفة، ثم يدلف إلى الداخل!

تضع قدح القهوة على الأرض وتهرع للخارج حافية، تهرع إلى الغرفة تقف خارجها وتنادي بصوت خافت: «أيها الطفل»، لا أحد يرد.

بتؤدة تسير على أطراف أصابعها وتدخل، تضيء النور، غرفة عادية لا أحد بها، لا تنم عن أن من يقطن بها سفاح أو مصاص دماء أو آكل للحوم البشر أو مذءوب، هنا تجد يدًا صغيرة تمتد من أسفل الفراش كي تلمس قدميها الحافيتين، كادت تصرخ وتولول، لولا أن تذكرت أنها متسللة، وأن صراخها سيفضح أمرها لا محالة؛ لذا تمالكت نفسها ووضعت يديها على فيها كي تمنعه من الصراخ، وبتؤدة جثت على ركبتيها ونظرت إلى أسفل الفراش، لتجد الطفل الصغير قد اختفى!

الرائحة في الأسفل عطنة للغاية.

تنهض تنظر حولها وتزيح السرير بأكمله، الرائحة تزداد سوءًا بالفعل أسفله.

تزيح كل شيء فترى سوادًا يملأ الأرض في تلك البقعة تحديدًا، تجثو مرة أخرى على ركبتيها وتضع يديها لتلامس تلك البقعة فترى كل شيء!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

يجلس الرجل على مقدمة فراشه، أمامه طفل صغير مقيد باللاصق من فمه إلى قدميه، يحاول التملص، لكن لا مناص.

يبتسم الرجل إلى الطفل حاكيًا له قصته في عجالة قبل أن يجهز عليه كالبقية.

- اسمي لا يهم أيها الصغير.. كل ما يهم هو أن تعرف قصتي قبل أن أذبحك كبقية رفاقك.

يتنهد وينهض ناظرًا من فرجة الشرفة التي أغلقها كي لا يراه أحد، ثم يردف:

- لقد ماتت أمي وظللت وحيدًا في هذه الدنيا، تزوج أبي من إحدى هؤلاء النسوة اللائي ينتظرن الرجال الذين مضى بهم قطار العمر ورحلت زوجاتهن.. تزوج أبي وحلمت زوجة أبي بإنجاب طفله، ولكنها لم تستطع تحقيق ذلك، لقد كانت عاقرًا، زاد هذا الأمر من غضبها، وتحول إلى مأساة بالنسبة لي بكل أسف، لقد كانت مهووسة بالأمر، أرغمتني على ارتداء ملابس الفتيات، وأجبرتني على الخروج بها إلى الشارع، ولم أحظَ يومًا بأي صديق .

هنالك في ذلك الزقاق بدأ كل شيء.. وكان أول ضحاياي.

إنه صديقي (بوول)، ذلك الفتى الصغير الذي ظل يقهقة عندما رآني وأنا أرتدي ملابس الفتيات.. لا، لقد تمالكت أعصابي عكس الجميع.

وراقبته، راقبته حتى صار في ذلك الزقاق بمفرده حيث منزله القذر، ترك دراجته وربطها في ذلك العمود الكهربي، والتفت ليجدني أمامه تمامًا.. لم يشعر وقتها بشيء؛ لأن سكينًا قد سرقتها من مطبخ زوجة أبي، أخرجتها من جَعبتي، كانت قد خرجت لتشق طريقها إلى أمعائه.

وقف مشدوهًا يتبادل النظر بيني وبين يدي التي تقبض على السكين وتدور بها بين أحشائه، وسقط أرضًا بعدها، تلوى مرتين ثم همدت حركته إلى الأبد.

ومن وقتها بدأ كل شيء.

لقد شعرت بتلك اللذة، وأقسمت أنني لن أدعها.

جلس هذه المرة بعد أن فرغ من حديثه، وأخرج سكينًا صدئة، ذات يد خشبية، وأضاف وهو يقربها من عنق الطفل:

- هذه هي ما بدأت كل شيء، سوف أقتلك وألوك كل قطعة في جسدك باستمتاع، وما تبقى من أشلاء سوف أدفنها تحت قدمي هاهنا.

قالها ثم دسها بين ضلوع الطفل!

وارتجفت (ماجدة) مفزوعة، وأفاقت من شرودها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

إذن هذا الرجل سفاح لا شك في ذلك، وهي تجلس في غرفته.. لقد حدثت هنا جريمة قتل وهي رأتها رأي العين.

تبحث عن أي شيء يصلح لأي شيء، فتجد في حافظة الملابس رفشًا وفأسًا!

حسنًا، هذا جيد، تناولت الفأس وبدأت تحاول إزاحة طبقات الأرض، الرائحة تزداد عطنًا، وصارت عفنة أكثر من اللازم.

لا بد أنه سيدخل الآن ومعه طفل آخر ليفعل به ما يفعله كل مرة؛ لذا لا بد أن تنتهي بسرعة.. الكثير من العرق والجهد العضلي، والكثير من التراب والحفرة تتسع أكثر.. الآن تظهر بقايا الطفل، أو لنقل بقايا أشلاء الصغير، تحاول أن تتمالك نفسها، لا بد أنها ستقيء الآن ثم تفقد الوعي. تمالكي أعصابك يا (ماجدة)، لا تفقدي الوعي الآن. تمد يدها لتخرج تلك الأشلاء من الأرض.

هذه بقايا جثة الطفل الذي كانت تراه بين الحين والآخر، هذا أكيد!

يدها الآن غارقة في الدماء العفنة التي صارت سوداء، تترك كل شيء من يدها بعد أن نظرت إليها وكادت تقيء مرة أخرى، تهرع إلى الخارج إلى غرفة (إبراهيم)، تدق الباب بعنف، يفتح الباب وهو يتثاءب.. أووووعععع.

تقيء على بيجامته، ثم تفقد الوعي الآن.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كاد يصرخ كالنساء لولا أن تفقد جسدها في سرعة، فعلم أن الدماء ليست دماءها، وفي ذات اللحظة لمح بطرف عينه باب الغرفة وهو مفتوح على مصراعيه، جر (ماجدة) إلى داخل غرفته جرًّا ووراها، ثم انطلق ببيجامته -وأسلم أمره لله- إلى تلك الغرفة، وهو يتلفت حوله كالمجرمين.

بمجرد دخوله إلى الغرفة شاهد كل شيء، أخرج هاتفه بعد أن أغلق الباب، كاد يتصل بالشرطة إلا أنه عدل عن الأمر، وبهدوء هبط الدرج، وصل إلى الفتاة على الكاونتر، طلب استخدام هاتف الأوتيل، وبهدوء وصوت خافت اتصل بالشرطة وحكى لهم كل شيء، ابتسم إلى الفتاة وعاد إلى غرفته.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

جاءت دورية الشرطة إلى الأوتيل، صعدوا إلى الغرفة، واكتشفوا الأمر برمته، وبدءوا التحريات.

كانا قد غادرا الفندق هو و(ماجدة)، التي سارت تترنح كالسكارى، وتتمتم بالكثير.

أوصلهما السائق إلى المطار، ناوله النقود، ثم شكره وانصرف.

دلفا إلى داخل الصالة، ثم إلى كافيه قيم هناك، وجلسا يرمقان بعضهما البعض.

تساءلت وهي تمسك مقدمة رأسها:

- هل ألقوا القبض عليه؟ أم لا؟

لم تتلق ردًّا، فأردفت:

- هل علم الآن أنني من وشى به؟ هل سيقتلني؟ هل سأكون مثل ضحاياه، أم إنه يقتل أطفالًا فحسب؟ أظنه يقتل أطفالًا فقط، لكنني من وشى به.

قاطعها (إبراهيم) وهو يرشف من قدح القهوة:

- (ماجدة)، ساعة وسنكون على متن الطائرة، وبعدها ستكونين في بيتك.

- إذن لن يعثر علي أبدًا.

رد كي ينهي ذلك الحديث، وكي يطمئنها:

- نعم، لن تموتي، على الأقل على يدي ذلك المختل.

رفعت عينيها إليه وابتسمت.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الحادث التالي حدث بعد أسبوع تقريبًا، لا داعي أن نذكر هنا ما حدث مع (ماجدة) عندما عادت إلى دارها، كانت والدتها قد تحسنت، بعد أن قصت عليهم ما حدث تفصيلًا، وعلم الجميع أنها بريئة، وأن ما حدث لا ذنب لها فيه.

كانت لحظات قاسية كما تعلم وهي تحكي لهم كل شيء، الأم ترتجف وتضرب بيدها على صدرها لتلهبه، لا تصدق شيئًا مما تقصه ابنتها.

لكن الحياة عادت كما كانت تقريبًا قبل أن تتزوج (ماجدة)، إلى أن حدث ما حدث.

ذهبت مع والدتها إلى جارتهم السيدة (عزة عبد القادر)، لقد أخبرتها أن لديها عريسًا لابنتها (ماجدة)، إنه يعلم كل شيء عنها، ببساطة لأنها حكت له كل شيء عنها، الجيد في الأمر أن (ماجدة) لم تنجب، لن يربي طفلًا ليس طفله، هكذا أخبرها وهكذا أخبرته أنها لم تنجب، وافق على أن يراها، ولعدم الإحراج وحساسية الموقف اتفقت السيدتان على مكان محايد، هو شقة (عزة عبد القادر).

الست ليست خاطبة لو كنت خمنت ذلك، لكنها تساعد جارتها وابنتها على الخروج مما هما فيه ومن كلام الناس كما تعلم.

وتم كل شيء كما اتفق.

جلس الجمع يحدق في بعضه، في شقة في الطابق الأرضي تملكها جارتهم عزة.

(ماجدة) تهمس في أذن والدتها، وتبادلها الهمس، وترمق العريس بين الفينة والفينة، إلى أن أفلت كوب الشاي من يدها وارتبكت، جثت على ركبتيها كي

تلتقط الكوب، ووضعت يديها على الأرض ورأت كل شيء.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- (علوان)، لا بد من ذبيح، كي نفك الرَّصَد، لا بد من طفل صغير.

ينظر إليه رجل ذو شارب كث بدوره، ويضيف وهو يحاول تثبيت لوح كبير من الخشب في الحائط؛ كي لا تنهار الحفرة فوق رءوسهم:

- لقد أخبرت الملعون (حنفي)، هو يعرف ما يجب عمله، سوف يأتي لنا بالشيخ عرفة، وسوف يجلبان معهما رضيعًا من أحد الملاجئ.

يمسح الرجل الأول عرقه بطرف جلبابه ويردف:

- لا بد أن ننهي كل شيء في الغد، لن نؤجل مرة أخرى، سوف تفوح الرائحة إن تم التأجيل.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في الليل، في اليوم التالي..

يقف الجمع ومعهم رجل قصير القامة له لحية كاملة لكنها قصيرة لم تنمُ بعد، يدعى (حنفي)، يحمل طفلًا صغيرًا رضيعًا بين يديه يئن ويصرخ بصوت خفيض، وينظر حوله ثم يضيف:

- لقد صار المكان كنار جهنم بالأسفل.

قال الرجل الأول الذي كان يرتدي جلبابًا وخلعه كي يكمل الحفر، وهو يزيح العرق الذي كان يتصبب منه بغزارة:

- سوف نموت هنا إن لم ننته بسرعة من هذا.

أرجو أن نفرغ قبل أن ينهار البيت كله فوق رءوسنا، أو يفضح الجيران أمرنا، ونلقى الشرطة في انتظارنا بالأعلى من صوت الحفر أو من ذلك اللعين الصغير.

مرت نصف ساعة وهما يحفران حتى اصطدم الفأس بشيء صلب جعل الفأس نفسها تطير في الهواء تاركة يد الرجل الأكبر سنًّا فيهم!

نزل الآخر بركبتيه على الأرض عند موضع الحفر، وبدأ يزيح التراب بيديه ليجد أرضًا أكثر صلابة، منقوشًا عليها الكثير من اللغة الهيروغليفية القديمة، إنها من البازلت.

قال هذه الأخيرة وهو يتحسس الأرض، ثم أردف:

- هذه هي بوابة المقبرة التي نبحث عنها.

مسح المُسن عرقه بيده ثم أضاف:

- إذن لنغلق كل شيء ولنبحث عن مشتر، قلبي يخبرني أننا لن نكمل هذا في أمان، لنَبِعْ البيت كله ونُرِحْ ونَسترِحْ، من يريد أن يرى ينزل ليرى، ثم يشتري منا ويكمل هو كل شيء.

- لا لن نفعل ذلك، بل سنفتح المقبرة كي نُثمن ثمنها بأنفسنا.

قالها (حنفي)، وهو يشيح بيديه اللتين تحملان الرضيع يمينًا ويسارًا، ثم أردف:

- ثم ذلك الطفل، لقد سرقته كي نفتح به المقبرة ونفك المرصد المربوط فيها، وسوف نفتحها.

- هل تفهم في التثمين أنت؟ ومرصد ماذا؟! اسمه رَصَد يا معتوه، ثم إن من سيشتري سيكون عالمًا حاذقًا في مثل تلك الأمور، وفي النهاية سنبيع المقبرة لهم، وبالثمن الذي سيقولونه لنا أيًّا كان لنخلص منها.

- لن أتحرك من هنا إلا بعد أن نفتح المقبرة وأرى بعيني الكنز.

قالها وأخرج من جيب بنطاله من الخلف مدية صغيرة وضعها على عنق الصغير وهم أن يذبحه، لولا أن رفع الرجل المسن الرفش لأعلى كي يهدده به ملوحًا، لكن (حنفي) هذا كان سريعًا جدًّا وذبح الصغير الذي قد همدت حركته سريعًا، وراحت الدماء تتساقط على أرضية المقبرة، التي بدأت بوابتها تتحرك ببطء لأسفل، لم يدر ثلاثتهم ما الذي يفعلونه، فلم يتوقع أحدهم أن تنفتح البوابة دون تدخل مباشر منهم ودون أن يفتحها أحدهم، بدأت الأرض تنهار من تحت أقدامهم وألواح الخشب تتساقط واحدة تلو الأخرى، وانهار السقف فوق رءوسهم وساد الصمت المكان.

وظهر وسط الظلام كائن رفيع ذو قرنين، يجلس القرفصاء ويجثم على سقف المقبرة، ويبتسم بأسنان مدببة كالضواري.

وأظلم كل شيء، لكن هذه المرة لم تستفق (ماجدة)، بل صرخت وغابت عن الوعي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- 13 -

- سوف تتعافى.. لا تقلقا.

يضع الطبيب سماعته وباقي أدواته في الحقيبة:

- لا داعي لكل ذلك القلق، إنها سليمة وجهازها العصبي يعمل بشكل جيد جدًّا.. إنها غيبوبة هستيرية كما هو واضح.. رسم المخ الكهربي لم يقدم لنا شيئًا.. قلبها يعمل ويضخ الدم بامتياز.

لم يحرك الرجل ساكنًا، فقط ظل ممسكًا بيد ابنته وقبلها، وهو يتمتم بكلمات على غرار «انهضي لأجلي يا ابنتي»، «انهضي وسوف أفعل كل شيء لأجلك».. أما عن أمها فكانت هي الأسوأ حالًا، فقد جلست تولول كالثكالى.

وقف الطبيب على باب الغرفة متأهبًا للمغادرة ومضيفًا:

- صدقاني سوف تفيق لا تقلقا، هذه صدمة عصبية شديدة، سوف تتعافى، لكن ستأخذ وقتها كما تعرفان، لا بد أن حدثًا جللًا قد حدث، أو أنها رأت ما ضغط على أعصابها بشكل لا يحتمل.

لا بد أن تبقى تحت الملاحظة، ولتعطياها تلك الأدوية التي كتبتها، ستتحسن إن شاء الله، رقم هاتفي معكما، في أي وقت أنا موجود.

لك أن تتوقع وَقْع ما قاله الطبيب على الوالدين، لم تستطع الأم أن تنتظر أكثر من هذا كي تنفجر في البكاء الهستيري، ولا الأب أن ينهض وهو يقول والدموع تنهمر من عينيه: لقد ضاعت ابنتي.

لقد كان الموقف صعبًا بحق على تلك الأسرة في الأيام التالية..

جوار الفراش كانت الأم تمكث أكثر الأوقات، تتلو آيات القرآن الكريم، وتعبث في شعرها، وتلثمها بين الحين والآخر.. هذا عن الأم، أما الأب فكان كالمجنون يتحدث بين الحين والآخر إلى طبيب مختلف، يحاول الفهم أكثر.. باختصار كانت حالتهما سيئة.

حتى أتى اليوم الذي أمسك والد (ماجدة) هاتفه، وطلب آخر من كان معها في رحلتها وأعادها إليهم، وعرف كل شيء عنها مؤخرًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- 14 -

كان (إبراهيم) وقتها في بيته كذئب وحيد، يرشف الشاي في شرفته، ويرمق الطرقات ومن يمشي في الطرقات، حين دق جرس هاتفه.. إنه رقم دون اسم يضيء أعلاه!

ضغط الزر، فأتاه صوت يكاد يبكي لرجل في منتصف الخمسين تقريبًا أو في نهايتها: - أستاذ (فتحي) معي؟

- تقصد (إبراهيم فتحي)؟

- نعم، هو ذا، هل هذا رقمه يا بني؟

- نعم، إنه أنا.. من أنت؟

- أنا والد (ماجدة) التي كانت معك في (فرنسا) وأعدتها إلى مصر، كان لا بد أن أرفع سماعة هاتفي كي أشكرك وقتها، لكن...

- لا عليك سيدي، هي ابنتي أو لنقل أختي الأصغر سنًّا، وهذا موقف يقفه كل أحد لديه ذرة شهامة، لكن كيف حال (ماجدة) بالمناسبة؟

- أنا أحدثك لأجل هذا؟

- ماذا؟ لا أفهم، هل بها سوء؟

- أستاذ (إبراهيم)، أنت آخر واحد كان بصحبتها هناك.. ابنتي (ماجدة) قد... أنا لا أعلم لماذا قررت أن أحدثك.. إنني.. لقد.. (ماجدة).. هل ممكن أن تأتي إلينا؟

لم يجد (إبراهيم) مناصًا من أن يأتي إليهم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان الوضع في منزل (ماجدة) ليس أفضل حالًا، لقد كانت على الفراش غائبة عن الوعي كما هو واضح.

والداها في حال يرثى لها، جموع الجيران والأقارب الذين احتشدوا في غرفة نومها، وكأن (إبراهيم) طارِد الأرواح الشريرة في أفلام الغرب، وقف الجمع ينظر إليه في عجب واندهاش، وفي انتظار ما سيقوله هذا العراف.

ألقى (إبراهيم) نظرة على (ماجدة)، وأضاف:

- ماذا قال لكم الطبيب؟

بعين دامعة أضاف الوالد:

- صدمة عصبية شديدة، وقال إنها سوف تتعافى، لكن ستأخذ وقتها، وأضاف أنه لا بد أن حدثًا جللًا قد حدث، أو أنها رأت ما ضغط على أعصابها بشكل لا يحتمل.

وفي النهاية، قال إنها لا بد أن تبقى تحت الملاحظة ولنعطِها تلك الأدوية.

- ستتحسن إن شاء الله.

قالها (إبراهيم) وهو يمصمص شدقيه، فتأفف الجمع، وكأنهم يقولون: «هذا هو من سيزيل اللعنة؟! حسنًا، عليه اللعنة!».

اقتاده الأب إلى مقعد خشبي، جلس (إبراهيم) عليه، فجعل ظهره كالذي وضع في جبيرة من جراء كسر ألم به، لكنه كان يفكر في كلام الأب الذي قاله على لسان الطبيب؛ لذا أضاف كي يريح ضميره: - سيدي، لا أعرف إن كان ما سأقوله لك سيفيدك، أو حتى من الصواب أن أقوله لك أم لا، لكن ضميري كما تعلم يؤلمني بشدة، وسيلقي علي اللوم إن لم أتحدث إليك، خاصة وأنت قد طلبت مني المساعدة بما إنني كنت مع (ماجدة) شفاها الله في تلك الرحلة المشئومة؛ لذا سوف أقص عليك كل شيء.

- احكِ يا بني أنا أنصت، قل لي من فضلك ماذا حدث لابنتي.

- حسنًا، سوف أحكي.

وهكذا جلس (إبراهيم) يقص على الرجل كل شيء عما حدث منذ قابل ابنته حتى تركها عند باب بيتها، كان الأب في حيرة من أمره، خالطته حالة من التصديق وعدم التصديق والتعجب والتخلف العقلي، لكنه كان مصدقًا.. مصدقًا رغم كل شيء، في نهاية الحديث أضاف (إبراهيم): - إن ما حدث لها في المقبرة تلك قد نبه تلك الموهبة داخلها، جعلها تستفيق من سباتها؛ لذا فهي مختلفة عن الآخرين، ربما رأت شيئًا عندكم هنا أو في المكان الذي كانت فيه، ولم يستطع عقلها أن يستوعبه تمامًا.

فك الأب عقدة يده وصرخ تجاه زوجته:

- عطيااااات.

أتت عطيات بأنف أحمر وعينين حمراوين جاحظتين، وإيشارب يلف شعرها بإهمال: - ماذا هنالك؟ لماذا تصرخ هكذا؟

- ما الذي حدث عند جارتنا تلك؟

- ماذا تقصد؟

- أقصد ماذا رأت ابنتي كي تصاب بصدمة عصبية يا هانم؟

لقد فهم الرجل كلام (إبراهيم) بطريقة خاطئة؛ لذا أضاف (إبراهيم) كي يهدئ الأمور: - هل حدث هناك شيء غير مألوف، أقصد، قصي علينا ما حدث.

بدأت السيدة تحكي كل شيء، وكان ينقصها أن تحكي لهم عن مقادير الشاي والعصير الذي تم صنعه لهم هناك، حتى وصلت إلى النقطة التي جثت فيها (ماجدة) على ركبتيها كي تلتقط شيئًا من على الأرض، وحدث ما حدث لها.

هنا قاطعها (إبراهيم) قائلًا:

- هنا مربط الفرس، لقد وضعت يديها على الأرض ورأت كل شيء، رأت ما حدث في تلك الشقة، ربما كان حادثًا مروعًا.

نظر الرجل إلى السيدة، ودون أن يتحدثا أضاف الرجل: - مستحيل أن تكون قد رأت كل شيء.

- ماذا تقصد؟

- لقد حدثت مذبحة في ذلك البيت منذ سنوات مضت، قبل حتى مولد (ماجدة)، وقبل أن يسكن فيه هؤلاء الجيران، لكنني كنت أعرف كل شيء.

- ماذا حدث يا رجل أخبرني؟

- إنها قصة طويلة، آثار.. مذبحة بسبب الآثار، قُتل فيها جميعهم، ماتوا كلهم بسبب النبش عن الآثار.

- إذن كما أخبرتك، لقد رأت (ماجدة) كل شيء، لقد رأت المذبحة، ولم يستوعب عقلها ما رأته.

قالها (إبراهيم)، ثم أضاف كي يلملم أموره، وينصرف: - حسنًا، إن الوضع يبدو غير مألوف كما هو واضح، لكن هناك الكثير مثل (ماجدة) صدقوني، إنها فقط مختلفة وعلينا تقبل ذلك، علينا ألا نشعرها أنها مختلفة، وسوف يكون كل شيء على ما يرام بإذن الله.. وسوف تتعافى إن شاء الله، وسيكون كل شيء على ما يرام، فلا أحد يموت جراء صدمة عصبية.

هكذا قالها وتنحنح ثم انصرف.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لقد انتهت قصة (هيثم) عند ذلك الحد، حقيقة هي لم تنته، لكن لنقف عند ذلك الحد كما وقف (هيثم)، وربما نعود يومًا لنحكي فيه عن قصة (ماجدة)، لكنها كاملة هذه المرة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

الحكاية الثانية
(1943)

- 0 -

تفتح عينيها، ثوان وتحدد العينان لون سقف الغرفة، بعد أن اعتادت الظلام، وميزت جدرانًا متآكلة وسقفًا خربًا، الضوء واهن جدًّا إلا من بعض الفتحات التي تسرب منها ودخل إلى حيث هي، إنه دوي الانفجار، لقد أفزعها وجعلها تنهض وقلبها يدق بقسوة!

تنهض وعظامها كلها تئن بشدة، تتلفت حولها وترفع ذراعيها فاردة إياهما، لا بد أنها كانت ميتة قبل أن تنهض لتشعر بكل ذلك الألم الذي لا يطاق.

رأسها يؤلمها وظهرها كذلك، تشعر بذلك الألم يسري عبر عمودها الفقري، حافية القدمين، تسير ببطء على الأرض غير الممهدة، الكثير من الحجارة والغبار المتراكم، كأنها في مقابر اليهود القديمة.

معدتها تؤلمها بشدة، والعرق بدأ يتصبب منها، رائحة العطن تغلف كل شيء تقريبًا!

الغريب أن هناك رائحة تشبه رائحة الشواء، ومعها رائحة تشبه أيضًا رائحة البارود المحترق!

تتقدم ببطء، تتحسس الخطوات بقدم حافية، غبار كثيف يعبق الجو، فتسعل كأن رئتيها ستنفجران، تستند بيديها إلى أحد الأسرَّة الموجودة في الغرفة.

إذن هي غرفة على ما يبدو كعنبر في أحد المعسكرات، أو غرفة في أحد المستشفيات، لا تتبين ذلك بالضبط، السرير فارغ والملاءة متسخة ومهترئة.. قواها منهكة تمامًا.

لا تتذكر من هي أو أين هي، هناك قضبان حديدية في المكان، أقصد كانت يومًا ما موجودة، والآن تحطمت كما تحطم كل شيء.. إذن هي في سجن ما تحت الأرض.

يومًا ما كان هناك أناس يغدون ويروحون هاهنا، كان ذلك العنبر يومًا ما يشع بالحياة ويمتلئ بها، واليوم هو كقبر.

الحجارة تسد فتحة في الجدار، تمسك حجرًا متوسط الحجم وتحاول جاهدة رفعه، لكن بلا جدوى، تشعر بأنفاس متلاحقة من خلف ظهرها، تتناول حجرًا بيد مرتجفة، وتقبض بيدها عليه، الأنفاس ما زالت تتلاحق، ثم يدوي الصوت

(عاااااااااااااااااااااااا) قادمًا من خلفها، تلتفت إلى حيث هو وتلقي بالحجر بقواها الباقية، فيصيب الحجر صاحب الصوت فيُلقى على الأرض كالجِوال، تسد أذنيها بمؤخرة معصمها، إنه الطنين.

تتقدم بتؤدة ناحية صاحب الصوت الذي كان موجودًا منذ ثوان، فتجد جنديًّا يرتدي خوذة وملابس رثة، وبندقية عتيقة الطراز ملقاة إلى جواره، تلتقط البندقية، وتمسكها من مقدمتها وتستخدمها في ضرب الحجارة، فتتحرك الحجارة وتتساقط من فوق بعضها البعض، وترى الضوء يعبر داخلًا إلى الغرفة وترى كل شيء واضحًا.

إنه النهار، وهذا عنبر مليء بالأسرَّة، هذا عنبر أحد المستشفيات كما هو واضح، هناك أسرة عليها أجساد ممددة.

(بووووووووووووم)!

تسمع الصوت ويهتز المكان وتتساقط الأتربة فوق رأسها، تمسك رأسها، وتقع على ركبتيها، تتأوه وتتناول البندقية، وتنهض وقد امتلأت ركبتاها بالسحجات والجروح.

تخرج من غرفتها تلك فتجد غرفة أخرى مليئة بالقضبان الحديدية!

جندي يستند بيده إلى الجدار وبيده الأخرى يمسك ببندقية، الأرض ما زالت تهتز من تحت قدميها، لكنها تمسك بما تبقى من قواها بالبندقية، وتتقدم ببطء ناحية الجندي، و(عاااااااااااا) تضربه بظهر البندقية على رأسه، فيهوى على الأرض، وتتسع بقعة الدم حول رأسه.

إنه سجن على ما يبدو.. هناك جنود حرس، وكان هناك يومًا ما أناس في ذلك المكان.

غرف كثيرة أخرى في كل مكان!

تزيح المزلاج لإحدى الغرف وتدخل، فتجد الكثير من الأسرة مرة أخرى، هنا تتقدم نحو أحدها وتزيح الغطاء، فتجد رجلًا ممددًا على ظهره وقد فارق الحياة، سرير آخر تزيح عنه الأغطية وترى، لكنها تتراجع خطوتين إلى الخلف، إنه ذات الرجل لكن في السرير الآخر!

تتقدم إلى سرير آخر، وتزيح الغطاء فتجد ذات الرجل!

هنا يدق قلبها بعنف، وتهرع إلى الغرفة التي كانت بها.

تدلف إلى الغرفة وتتقدم إلى سرير تم وضعه في نهاية الغرفة وممدد عليه جسد ما ومغطى بالفراش، قلبها يدق بعنف، لا تعلم لمَ ولا ما الذي جعلها

تعود إلى الغرفة وتفكر فيما فكرت فيه، وتزيح الأغطية، وتجد الكارثة!

إنها هي، هي بالذات موضوعة على الفراش ولكن بلا حياة، تتراجع خطوات إلى الخلف وتمسك قلبها، وتترك البندقية، إنها تنظر لنفسها في المرآة، تتقدم بتؤدة إلى السرير المجاور الأخير، وتزيح الغطاء الخاص به بدوره، وتجد جسدًا آخر يشبهها!

إنه الجنون.

هناك أوراق مبعثرة في كل الغرفة، وملف تم وضعه بمشبك خاص ببلانشيت معلق على مؤخرة أحد الأسرَّة، تتقدم إليه وتنزعه وتبدأ في قراءته، وتتذكر كالومضات ما حدث.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- 1 -

أواخر عام (1914)..

يمسك (جاري ماهوكمان) بالمذياع القديم ويدير القرص، ويقف عند إذاعة الأخبار.

الأخبار الخاصة بالحرب العظمى تنهال على رأسه، يمكث جوار المذياع ويصغي السمع.

لقد أكلت هذه الحرب الأخضر واليابس، لقد حصدت الكثير من الأرواح، لم تبق ولم تذر، حتى الأناس المدنيون قد طالتهم تلك الحرب اللعينة.

يدوي صوت المذيع بكثير من اللهجات، معلنًا انضمام الدولة العثمانية إلى دول المركز، وأنها قد فتحت جبهات جديدة في القوقاز وبلاد الرافدين وشبه جزيرة سيناء.

إنه رشاش، لكنه يطلق كلامًا؛ لذا فإنه لا يصمت، ويكمل:

توغلت القوات النمساوية في أراضي (صربيا)، وخاضت قتالًا مع الجيش الصربي في معركة سير ومعركة كولومبارا، وبعد أسبوعين من توغلها هذا، قد تلقت القوات النمساوية خسائر فادحة في القتال، وشُهد أول انتصارات الحلفاء الرئيسيين في هذه الحرب، وقُطعت آمال القوات النمساوية المجرية من تحقيق نصر سريع؛ ونتيجة لذلك كان على (النمسا) أن تُبقي قواتها الكبيرة على الجبهة الصربية مضعفةً جهودها ضد (روسيا). بعد هزيمتها في غزو (صربيا) شنت القوات النمساوية المجرية هجومًا آخر على (صربيا) عبر نهر درينا يوم (7 سبتمبر)، ومنها وقعت معركة درينا.

تتقدم (إيلين)، زوجته، وتمسك بالبكرة وتديرها لتخفض الصوت، وهي تقول في رقة وتربت على كتفه: - سيعود، ستنتهي الحرب وسيعود.

ينظر إليها دون أن ينطق بكلمة واحدة، وتمسك بيده، يقبلها، وينهض ويحتضنها، ينام على كتفها، ويغمض عينيه، تربت مرة أخرى على ظهره، وتضيف: - لقد ربيناه جيدًا، (بيلي) يعرف ما يجب فعله، سوف يحيا لإجلنا ولأجلها؛ كي يحافظ عليها عندما نذهب إلى الجنة.

تقولها وتشير إلى فتاة صغيرة تمسك بدمية صغيرة، وتهدهدها، وتحاول جاهدة وضع البرونة في فمها المغلق.

ينظر هو الآخر إلى ابنته الصغيرة، ويغمض عينيه أكثر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- 2 -

تسمع خطوات قادمة إليها فتفيق من خواطرها، وتمسك البندقية جيدًا، وتختبئ خلف السرير المصنوع من الحديد.

يقترب الصوت أكثر، إنه جندي ألماني كما هو واضح، تمسك بالبندقية كخبير، وتصوب ناحيته، إنه يدنو منها، يتعثر فيسقط على الأرض، فتخرج بسرعة من مخبئها، وتنهال عليه بالضربات، حتى يلفظ أنفاسه الأخيرة، ويتطاير الدم في كل بقعة على هندامها.

تنظر إليه وتنظر إلى يديها اللتين لوثتهما الدماء، الدموع تنهمر منها رغمًا عنها وتنهار كالمجنونة، أصوات أقدام أخرى تدنو من المكان، هي إذن في مأزق حقيقي.

تمسك بقدم الجندي الملقى على الأرض، وتجره جرًّا وتواريه خلف السرير، وبسرعة تختبئ خلف الجدار، يدلف الجندي وهو يتحدث بالألمانية، ومصوب بندقيته إلى الأمام.

تمسك هي بماسورة بندقيته، وتشدها إلى الأمام ثم إلى الخلف، وترفعها ليرتطم ذقنه بها فيتركها ويمسك ذقنه، فتخرج من مكمنها وتضربه على أم رأسه بخشبة المقبض، فيتكوم هو الآخر على الأرض إلى جوار صديقه.

تمسك بندقيتها، وتنظر إلى الجنود المكومين على الأرض، وتتذكر ما حدث معها، وتأتي ومضة أخرى.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ترى نفسها ممسكة ببندقية قناصة، تنظر في عدستها المكبرة وتنتظر هدفها في صبر.

تنتظر ذلك الملازم الألماني.. هو يمسك بالمذياع الخاص بهم ويَنقل الأخبار وتُنقل إليه الأخبار، إنها من قوات الحلفاء، لقد تحالفت قواها مع (الصين) و(فرنسا)، ضد (ألمانيا) و(إيطاليا) و(اليابان).

هي تذكر كيف بدأت تلك الحرب، لقد اجتاحت القوات الألمانية دولة (بولندا)، وتوالت بعدها إعلانات الحرب على (ألمانيا) من قبل (فرنسا) ثم وطنها.

سيطرت (ألمانيا) النازية على مساحة واسعة من قارة (أوروبا) بعد سلسلة من الحملات العسكرية، وشكلت تحالف دول المحور مع (إيطاليا) و(اليابان)، كما اتفقت مع الاتحاد السوفيتي على تقاسم الأراضي المجاورة لهما.

بقيت المعركة الأساسية في الحرب بين دول المحور من جهة، وبلدها من جهة أخرى إلى جانب دول الكومنولث، إضافة إلى معركة برلين الجوية وقصف (لندن)، وحملة البلقان، ومعركة المحيط الأطلسي. وفي يونيو (1941)، قام تحالف دول المحور بغزو الاتحاد السوفيتي فيما يعرف بعملية باربروسا، ما أدى إلى إشعال الجبهة الشرقية، وهي أكبر مسرح للحرب في التاريخ، وهي الآن داخل تلك الحرب الشنعاء.

لقد وكلت لها عدة مهمات، من بينها اغتيال القادة ببندقيتها القناصة.

ينهض الجندي الألماني ويتحدث بلهجته الآمرة في جهاز اللاسلكي، فتشد بندقيتها وتحبس أنفاسها، وتركز أكثر على رأسه، وتطلق النيران، تنطلق الرصاصة إلى رأس الرجل مباشرة فيُردَى قتيلًا.

إنها أفضل قناصة على الإطلاق؛ لذا دربوها أكثر، وجعلوها تستهدف القناصين النازيين، والمسعفين، وكذا حاملو أجهزة الإرسال.

تتوارى بسرعة خلف الجوال الرملي الموضوع كساتر لهم، ينظر لها رئيسها ويشير إلى الجهة الأخرى.

تسمع صوت الطيران في الجو، إنها طائرات الجيش النازي، لقد أخبرهم اللعين بموقعهم بالإحداثيات بدقة.

لقد تكبد المدنيون خسائر في الأرواح إبان تلك الحرب، لقد أدى ذلك القصف الغاشم على المدن والقرى إلى سقوط الكثيرين، صحيح أن قوات الحلفاء قد ردت بالمثل وأسقطت من المدنيين هي الأخرى، لكن النازيين هم من بدءوا وابتدعوا تلك البدعة.

القنبلة تهبط إلى جوار المبنى الذي يختبئون فيه، فيهتز المبنى، ويبدأ في التساقط، ويحاول الجمع الهرب بلا جدوى.

هنا تأتي ومضة أخرى، وتتذكر كل شيء كأنه الحلم، بل كالكابوس.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- 3 -

هدير الدبابات يصم الآذان، الأرض تهتز هزًّا، صوت الطائرات وهي تمر كصوت الرعد، بل أشد قسوة، الانفجار يدوي في كل مكان.

والدها يهرع محتضنًا إياها، ويمسك بيده الأخرى والدتها محاولًا الهرب من القصف الجوي، ومن المدفعية، دانات الدبابات تصوب ناحية المباني والبيوت.

لقد تحطمت الواجهة الخاصة ببيتهم من الأعلى، يهرع محاولًا الهرب، وحاول الخروج بعائلته بسلام، (بووووووووووووم) مرة أخرى!

فيصمت كل شيء ويسودُّ كل شيء.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تتذكر أنهم قد حملوها حملًا إلى أقرب مركز متنقل لتلقي العلاج، سألت عن والدها ووالدتها فلم تجد ردًّا، لقد هلكا أثناء القصف المستمر، هلكا تحت الأنقاض، وتبقَى هي.. هي فقط.

الآن ليس لديها سوى الملجأ، الملجأ الخاص بهم في الريف، في (بليتز) بـ (ليفربول)، الجميع أخذ أطفاله وذهب بهم إلى هناك، لقد مات الكثيرون منهم، ولم يتم قصف (ليفربول) منذ زمن، لقد مرت الشهور دون وجود علامات على غارة جوية من قبل سلاح الجو النازي؛ لذا أعاد العديد من الآباء أطفالهم إلى (ليفربول)، إلى الملاجئ هناك.

لذا دخلت إلى الملجأ وبدأت حياة جديدة هناك، وسط عائلة جديدة وأولاد وبنات قد شردتهم تلك الحرب اللعينة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تمسك سلاحها وتنهض بصعوبة بعد أن سقطت هي وكتيبتها، يركلها أحد الجنود النازيين في بطنها ركلة موجعة، فتنتفض وتطير في الهواء وتطير بندقيتها معها وتنزف دمًا من فمها.

تحاول مجددًا النهوض، وتمد يدها محاولة إمساك البندقية، فيتقدم أحد القادة ويضع قدمه على يدها داهسًا إياها بقسوة، فتصرخ وتصرخ ألمًا، وتتأوه.

يمسك الجندي ببندقيته ويهم بالضغط على الزناد، لكن القائد يمسك تلك البندقية، ويوجه فوهتها إلى أسفل، آمرًا إياه بعدم الضرب، لكنه يرفع مقبض بندقيته، ويضرب به رأسها فتغيب عن الوعي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- 4 -

تمسك الآنسة (جوليت) بيد مدام (ماري) البدينة، وتعتذر لها عما فعلته، لقد خرجت من الملجأ ولم تخبرها، لقد حاولت الفرار، نعم لقد حاولت الفرار، لقد حاولت الهروب مع (جون كاثري) ذلك الفتى المتشرد، لقد أخذ حقيبتها بعد أن وضعت كل ما يلزمها داخلها، وانتظرت الليل، وخرجت على أطراف أصابعها، لقد فرت كيفما اتفق، انتظرته كثيرًا في المحطة، لكنه لم يأت، لقد أتى المطر، وانهال عليها، ولم يأت هو، لقد أتى الليل، ولم يأت هو، لقد مر القطار أكثر من مرة، ولم يمر هو.

ادَّثَّرت بمعطفها الأسود أكثر، كيف لم تحضر مظلتها؟! كيف نسيت شيئًا كهذا؟!

الآن هي تعاني من شدة المطر، هي الآن بين أمرين، العودة -وتحمُّل كل شيء فعلته كالرجال- إلى الملجأ ومواجهة مدام (ماري) المتجهمة دائمًا، وبين أن تظل هنا إلى الأبد، أو الخيار الأخير أن تفر من كل شيء وتبدأ حياة جديدة بعيدًا عن مدام (ماري) والفتى المتشرد (كاثري)، الذي وعدها بالزواج، حاولت اختيار الخيار الأخير، وسارت كثيرًا على قدميها حتى آلمتاها كثيرًا، والمطر كان لا يحتمل، الكثير من العطاس والسعال، البرد يحتل الآن جسدها، عظامها تؤلمها، كل عظمة في جسدها تلومها على السير في الأمطار.

لا سيارة في الطريق، لا وجود لأي شخص على الإطلاق.

تجلس على قارعة الطريق تنتظر، هنا تجد سيارة الملجأ، السيارة الوحيدة التي تسير في ذلك التوقيت، لقد خرجت للبحث عنها.

إنها النجاة، دقيقة أخرى في ذلك الطريق وسوف تموت؛ لذا نهضت وأشارت بيديها الاثنتين بعد أن تركت حقيبتها على الأرض، ضوء الكشافات الخاصة بالسيارة يقترب منها، وتبطئ حركتها، إنه العم (هاري) بلحيته وشاربه الكث، يتوقف على جانب الطريق ويهرع مغادرًا السيارة، يلتقطها بيد، وبيده الأخرى يلتقط الحقيبة الملقاة إلى جوارها، يدخلها السيارة ويدلف هو إلى مقعد القيادة، ويدهس دواسة البنزين، وينطلق إلى الملجأ، إلى حيث تنتظر مدام (ماري).

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تتقدم (جوليت) ببطء وهي تضم معطفها حول صدرها بالرغم من الماء الذي يتساقط منه، وبللت الأرضية الخشبية العتيقة، يتقدم إلى جوارها العم (هاري) ممسكًا بحقيبتها، تنظر إليه مدام (ماري) وتشيح بوجهها في نظرة ذات معنى،

أن «غور أنت في داهية واتركنا سويًّا»، وهكذا ترك الحقيبة على الأرض وغادر الغرفة إلى أي داهية كما قالت هي.

دون كلمة تنهض السيدة (ماري) وهي تضرب الأرض بقدميها المكتنزتين المليئتين، وتعقد يديها على صدرها، وتقف أمام النافذة.. (جوليت) ترتعد رعبًا وبردًا، إن الجو بارد هذه الأيام بحق، لا بد أن الرياح قد اختارت (ليفربول) كي تقطن بها تلك الأيام.

أنفها يعابثها، وصدرها يتحشرج، تدعك أنفها الذي يسيل، ثم اتسسسووووو اتسسسووووو، لا تتمالك نفسها فتنتابها نوبة من العطاس وبعدها تسعل مرتين.

تلتفت إليها مدام (ماري) وترمقها شذرًا كأنه ليس من حقها أن تسعل أو تعطس، فتحاول (جوليت) جاهدة أن تصمت.

تنظر إليها (ماري) وتضيف:

- لقد أعطيت لك الثقة، لكنك لم تستحقيها، لقد نصحتك مرارًا، لكن...

- أرجوك مس.

تضيف السيدة (ماري)، مقاطعة إياها:

- أيتها اللعينة، لقد حاولت الفرار مع ذلك المتشرد اللعوب، والآن ليس لك مكان هنا.. اذهبي من حيث جئت.

تهرع (جوليت) إلى يد مس (ماري) مقبلة إياها:

- أرجوك يا سيدة (ماري)، سوف أفعل كل ما تقولين لي، لن أخذلك مرة أخرى أقسم لك.

دقيقة تصمت فيها السيدتان، ثم تردف (ماري):

- سوف تجلسين، لكن بشرط.

- سوف أفعله.

وكان الشرط قذرًا بما لا يسمح أن أذكره هاهنا، لا لا، ليس هذا، إن كنت تظن هذا، حسنًا حسنًا، سوف أذكره، الشرط هو أن تذهب إلى قائد من قوات الحلفاء، وتقابله، مقابلة غير بريئة بالمرة، حتى يأتي لهم بالمعونات المادية، وأن يأخذ منهم بعض الشباب، يأخذهم إلى حيث لا رجعة.. إلى حيث لا رجعة أبدًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- 5 -

(سارة) الآن في السابعة عشرة من عمرها، لقد تعلمت جيدًا إطلاق النار، تعلمت التصويب من بعد، لقد رأت في نفسها مهارة لم تكن تتوقع أنها فيها.

بعد كل تلك التدريبات سوف يجعلونها تنطلق إلى الميدان الحقيقي، إلى ساحة الحرب.. هي تعلم أنهم سوف يأخذونها إن لم يكن اليوم فغدًا بلا شك.

هي تعلم كذلك أنها لا تحب التعليم الأكاديمي، الرياضيات أو الفيزياء أو كل هذه العلوم ليس لديها مكان في رأسها بلا شك، أما التمارين أو الركض فهي تشعر ناحيتهما -بكل تأكيد- أن بداخلها طاقة لا تفرغ.

أما عن الملجأ فكان كما تعلم الكل قد كون عصبته، هي وحيدة، لا تقترب من أحد ولن تدنو من تابو أحد، كل فرقة تعرف ما يجب عمله، كل فرقة تعرف المنضمين إليها، هي لا تجسر على أن تذهب إلى إحدى تلك العصابات لتخبرهم أنها بحاجة إلى الانضمام إليهم حتى لا تكون بمفردها.

ذات يوم ذهبت إليها (ديفي) وعرضت عليها أن تنضم إليهن، لكنها لم تشعر أن وجودها معهن سوف يجلب لها المنفعة، بل هن شلة من النسوة المجانين، يفعلن الكثير من الفوضى.

أما عن الفتى (شارلسون) فأنت تعلم أنه يحبها، يحبها جدًّا، ماذا عنها؟

هي لا تحبه ولا تبغضه، لكنها تحب ما يفعله من أجلها.

يظهر لها الشجاعة الدائمة، لقد جاعت ذات ليلة، وخرجت من الحرم الخاص بالفتيات، ذهبت إلى المطبخ ليلًا وهذا كان خطأً فادحًا، لكنها فعلت، تسللت وذهبت إلى حيث الثلاجة الكبيرة، وفتحتها بأعجوبة، أخذت ما يكفيها من الخضراوات في حقيبة بلاستيكية، ثم وجدت نفسها داخل الثلاجة وقد تم إغلاقها عليها، ألقت الكيس من يديها وهرعت تضرب الباب بكلتا يديها، الآن سوف تتجمد وتصبح كالخيارة يتم كسرها صباحًا.

في لحظة أدركت أنه لا مناص من الموت، لكنها وجدت الباب ينفتح ويفصح عن وجه (شارلسون)، الذي ما إن رأته حتى ارتمت في أحضانه، وأخذ يربت على كتفها، أخذها حملًا على كتفيه وتسلل بها إلى غرفته، قرب إليها المدفأة وأعد لها الحساء، أفاقت مما كانت عليه فرأت وجهه، ابتسمت له فبادلها الابتسامة، ومن وقتها دق قلبه.

قبل حلول النهار وقفت أمام باب غرفته، لثمته في مقدمة رأسه وركضت إلى غرفة الفتيات، وعادت كما تسللت وفرت من ساعات.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في اليوم ذاته ..

يدخل الفتى (شارلسون) ومعه حقيبة صغيرة إلى فناء الملجأ، ومعه فريق صغير من جنود الحلفاء، يدخل ويقف واضعًا يديه في خصره، ثم يضيف صارخًا: - مس (ماري).. لقد أتى الجمع.

دعونا نتعرف أكثر على (شارلسون)، فهو كما تعرفون ذلك الفتى الذي يعمل بدراجته في شراء كل ما يلزم من الأشياء التي لا يحتاج العم (هاري) إلى شرائها أو الذهاب إلى شرائها بسيارته.

وهو يحب (سارة) كذلك، إنه يختلس النظر لها دائمًا في غرفة الطعام أو مع صديقاتها في الفناء.

ذات مرة تسلل إلى الغرف العلوية التي تحوي غرفتها، وانتظرها عند الحمام ليختلس النظر إليها وهي تستحم، ولحسن الحظ رأته (دورثي)، وبعدها ملأت الدنيا صراخًا وعويلًا، ففر هاربًا، ولحسن حظه أيضًا أنها قد رأته من الخلف؛ لذا لم تتبينه جيدًا.

وقف الجمع من خلفه يرمق الفناء ويتفحصه بعين خبير، في حين تتقدم مدام (ماري) إلى القائد، وتصافحه، وتقتاده إلى فناء فسيح يعج بالفتيات.

يرمقه في سرعة ويشير إلى ثلاث فتيات بإصبعه دون أن يضيف كلمة واحدة.

تبتسم مس (ماري)، وكأنها تقول خيرًا سوف يأخذون ثلاثًا ويوفرون ثلاث وجبات، وكذا يحصل الملجأ على التبرع الممنوح له من الحلفاء.

يتقدم ثلاثة من الجنود ليقتادوا البنات إلى الحافلة التي تنتظرهم، هنا ينظر (شارلسون) إلى الثلاثة وهم يهمون باقتياد سارة، فيركض كالمجنون، ويحاول تخليصها من أيديهم، لكن أحد هؤلاء الجنود يلكمه فيطيح به ويسقطه على الأرض على وجهه، لكن سرعان ما ينهض ويحاول الإمساك بأقدامهم، لكنه يفشل في النهاية، ويودعها بنظرات باكية إلى حيث لا رجعة أبدًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كما قلنا مسبقًا هي تحب الرياضة؛ لذا فقد فاقت كل توقعاتها لنفسها، وتلقت التدريبات، وصارت تعرف ما يجب فعله، حتى أتت اللحظة الحاسمة التي أخبروها أنها سوف تكون من بين الآلاف من الجنود في تلك الحرب، والهدف الجنود المراسلون، والمسعفون، وأي مهمة أخرى قد تضاف وتستجد ويتم أخذ أوامر بها.

وبالفعل لقد قضت على الكثير من الجنود، وذاع صيتها وعرفها المحور جله.. بندقيتها لا تخطئ.

وجاء ذلك اليوم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الأخير

تمسك سلاحها وتنهض بصعوبة، يركلها أحد الجنود النازيين في بطنها ركلة موجعة، فتنتفض وتطير في الهواء وتطير بندقيتها معها وتنزف دمًا من فمها.

تحاول مجددًا النهوض، وتمد يدها محاولة إمساك البندقية، فيتقدم أحد القادة ويضع قدمه على يدها داهسًا إياها بقسوة، فتصرخ وتصرخ ألمًا، وتتأوه.

يمسك الجندي ببندقيته ويهم بالضغط على الزناد، لكن القائد يمسك تلك البندقية، ويوجه فوهتها إلى أسفل، آمرًا إياه بعدم الضرب، لكنه يرفع مقبض بندقيته، ويضرب به رأسها فتغيب عن الوعي.

يلتقط المصور صورة لـ (سارة) وهي جالسة على المقعد، ومقيدة من الخلف من يديها وقدميها، وملثمة من فيها، يمسك الجندي بندقيته ويشد أجزاءها ويصوب في اتجاه رأس سارة، ينظر إلى قائده منتظرًا الإشارة، الإشارة فقط، وبعدها سيفجر رأس تلك العاهرة، لقد قنصت الكثير من زملائه؛ لذا سوف ينتقم للجميع.

يركز أكثر وإصبعه تلامس الزناد، منتظرًا الوقت الذي يضغط فيه، لكن كل هذا منعه ثلاثة دلفوا إلى الغرفة في زي رسمي كامل!

أردف أحدهم بصوت هامس في أذن قائده، فأشار قائده بيديه أن أنزل سلاحك.

التعجب يرتسم على وجهه، لكن ما باليد حيلة؛ لذا خفض بندقيته، ثم (بووم) ضربها بمؤخرة البندقية الخشبية في وجهها، وسالت الدماء من فمها، هذا فقط يبدد غضبي ولو قليلًا حتى أنتظرك، ونتقابل مرة أخرى قريبًا.

قالها وانصرف من أمامها.

قال القائد للقائد الآخر الذي دخل مؤخرًا:

- لقد قالوا إنها ستفيد في التجربة الجديدة.

- إن لهم نظرة ثاقبة، أعلم هذا، لكن...

- لا يوجد لكن.. الرايخ يقول وكلامه أمر (طبعًا الحديث هنا عن الفوهرر، يقولون عنه الرايخ أي أنه هو نفسه ألماني).

- لا أقصد هـذا، أنـا أقصــد أنهــم على حـق، لكـن مـن سيحضر تلك العملية.

- إن العملية سرية كما تعلم؛ لذا سيحضرها الفوهرر بنفسه، ومن يثق بهم.

- حسنًا، فهمت.

قالها وهم بفك قيود سارة التي قد أنهكت قواها كلها، الدماء متناثرة في كل أنحاء جسدها، متخثر بعضها من قدمها، وبعضها ما زال يسيل قطرات طازجة.

أنهضها أحدهم، وقيدها بقيد حديدي مخصص لذلك، واقتادها إلى حيث عربة من الطراز الألماني العتيق، أدخلها، وأجلس إلى جانبها جنديين، وانطلق بالسيارة إلى حيث الاجتماع المنتظر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم تحضر سارة الاجتماع؛ لأنها كانت ببساطة مغمًى عليها، أخذت جرعة لا بأس بها من المنوم، الذي يقضي على جمل، كانت على محفة وأمامها عشرات الأطباء والممرضين.. الكثير من الأنابيب والكثير من المعدات، ودقات القلب ترن في الأفق معلنة عن أن حياتها لم تتوقف بعد.

الفوهرر يقف خلف زجاج غرفة العمليات يراقب الأمر عن قرب، إن العملية التي يجرونها إن نجحت فقد كوَّن تقريبًا جيشًا لا بأس به من ذوي المهارات الخاصة.

هذه الفتاة أول شيء سيجربونه، وبعدها ستتوالى التجارب، فقط إن نجحت سينسخون منها الكثير من العملاء الألمان، ستكون هناك عشرات من (سارة)، لكن من ذوات الجنسية الألمانية!

لسوء الحظ أثناء العملية هبطت عليهم عدة قنابل وألغام قادمة من السماء على يد طائرة كانت تشن هجومًا، وتبعثرت الأوراق، لكن تبقى شيء واحد، وهو (سارة).

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تفتح عينيها، ثوان وتحدد العينان لون سقف الغرفة، بعد أن اعتادت الظلام، وميزت جدرانًا متآكلة وسقفًا خربًا، الضوء واهن جدًّا إلا من بعض الفتحات التي تسرب منها ودخل إلى حيث هي، إنه دوي الانفجار، لقد أفزعها وجعلها تنهض وقلبها يدق بقسوة!

تنهض وعظامها كلها تئن بشدة، تتلفت حولها وترفع ذراعيها فاردة إياهما، لا بد أنها كانت ميتة قبل أن تنهض لتشعر بكل ذلك الألم الذي لا يطاق.

رأسها يؤلمها وظهرها كذلك، تشعر بذلك الألم يسري عبر عمودها الفقري، حافية القدمين، تسير ببطء على الأرض غير الممهدة، الكثير من الحجارة والغبار المتراكم كأنها في مقابر اليهود القديمة.

معدتها تؤلمها بشدة والعرق بدأ يتصبب منها، رائحة العطن تغلف كل شيء تقريبًا!

الغريب أن هناك رائحة تشبه رائحة الشواء، ومعها رائحة تشبه أيضًا رائحة البارود المحترق!

تتقدم ببطء، تتحسس الخطوات بقدم حافية، غبار كثيف يعبق الجو، فتسعل كأن رئتيها ستنفجران، تستند بيديها إلى أحد الأسرَّة الموجودة في الغرفة.

إذن هي غرفة على ما يبدو كعنبر في أحد المعسكرات، أو غرفة في أحد المستشفيات لا تتبين ذلك بالضبط، السرير فارغ، والملاءة متسخة ومهترئة.. قواها منهكة تمامًا.

لا تتذكر من هي، أو أين هي، هناك قضبان حديدية في المكان، أقصد كانت يومًا ما موجودة، والآن تحطمت كما تحطم كل شيء.. إذن هي في سجن ما تحت الأرض.

يومًا ما كان هناك أناس يغدون ويروحون هاهنا، كان ذلك العنبر يومًا ما يشع بالحياة ويمتلئ بها، واليوم هو كقبر.

الحجارة تسد فتحة في الجدار، تمسك حجرًا متوسط الحجم وتحاول جاهدة رفعه، لكن بلا جدوى، تشعر بأنفاس متلاحقة من خلف ظهرها، تتناول حجرًا بيد مرتجفة، وتقبض بيدها عليه، الأنفاس ما زالت تتلاحق، ثم يدوي الصوت (عاااااااااااااااااااااااا) قادمًا من خلفها، تلتفت إلى حيث هو وتلقي بالحجر بقواها الباقية، فيصيب الحجر صاحب الصوت فيلقى على الأرض كالجوال، تسد أذنيها بمؤخرة معصمها، إنه الطنين.

تتقدم بتؤدة ناحية صاحب الصوت الذي كان موجودًا منذ ثوان، فتجد جنديًّا يرتدي خوذة وملابس رثة، وبندقية عتيقة الطراز ملقاة إلى جواره، تلتقط البندقية، وتمسكها من مقدمتها وتستخدمها في ضرب الحجارة، فتتحرك الحجارة وتتساقط من فوق بعضها البعض، وترى الضوء يعبر داخلًا إلى الغرفة وترى كل شيء واضحًا.

إنه النهار، وهذا عنبر مليء بالأسرَّة، هذا عنبر أحد المستشفيات كما هو واضح، هناك أسرَّة عليها أجساد ممددة.

(بووووووووووووم)!

تسمع الصوت ويهتز المكان وتتساقط الأتربة فوق رأسها، تمسك رأسها، وتقع على ركبتيها، تتأوه وتتناول البندقية، وتنهض وقد امتلأت ركبتاها بالسحجات والجروح.

تخرج من غرفتها تلك فتجد غرفة أخرى مليئة بالقضبان الحديدية!

جندي يستند بيده إلى الجدار وبيده الأخرى يمسك ببندقية، الأرض ما زالت تهتز من تحت قدميها، لكنها تمسك بما تبقى من قواها بالبندقية، وتتقدم ببطء ناحية الجندي، و(عاااااااااااا) تضربه بظهر البندقية على رأسه، فيهوى على الأرض وتتسع بقعة الدم حول رأسه.

إنه سجن على ما يبدو.. هناك جنود حرس، وكان هناك يومًا ما أناس في ذلك المكان.

غرف كثيرة أخرى في كل مكان!

تزيح المزلاج لإحدى الغرف وتدخل فتجد الكثير من الأسرة مرة أخرى، هنا تتقدم نحو أحدها وتزيح الغطاء، فتجد رجلًا ممددًا على ظهره وقد فارق الحياة، سرير آخر تزيح عنه الأغطية وترى، لكنها تتراجع خطوتين إلى الخلف، إنه ذات الرجل لكن في السرير الآخر!

تتقدم إلى سرير آخر، وتزيح الغطاء فتجد ذات الرجل!

هنا يدق قلبها بعنف، وتهرع إلى الغرفة التي كانت بها.

تدلف إلى الغرفة وتتقدم إلى سرير تم وضعه في نهاية الغرفة وممدد عليه جسد ما ومغطى بالفراش، قلبها يدق بعنف، لا تعلم لمَ ولا ما الذي جعلها تعود إلى الغرفة وتفكر فيما فكرت فيه، وتزيح الأغطية، وتجد الكارثة!

إنها هي، هي بالذات موضوعة على الفراش ولكن بلا حياة، تتراجع خطوات إلى الخلف وتمسك قلبها، وتترك البندقية، إنها تنظر لنفسها في المرآة، تتقدم بتؤدة إلى السرير المجاور الأخير، وتزيح الغطاء الخاص به بدوره، وتجد جسدًا آخر يشبهها!

تسمع خطوات قادمة إليها فتفيق من خواطرها، وتمسك البندقية جيدًا، وتختبئ خلف السرير المصنوع من الحديد.

يقترب الصوت أكثر، إنه جندي ألماني كما هو واضح، تمسك بالبندقية كخبير، وتصوب ناحيته، إنه يدنو منها، يتعثر فيسقط على الأرض، فتخرج بسرعة من مخبئها، وتنهال عليه بالضربات، حتى يلفظ أنفاسه الأخيرة ويتطاير الدم في كل بقعة على هندامها.

تنظر إليه وتنظر إلى يديها اللتين لوثتهما الدماء، الدموع تنهمر منها رغمًا عنها وتنهار كالمجنونة، أصوات أقدام أخرى تدنو من المكان، هي إذن في مأزق حقيقي.

تمسك بقدم الجندي الملقى على الأرض وتجره جرًّا وتواريه خلف السرير، وبسرعة تختبئ خلف الجدار، يدلف الجندي وهو يتحدث بالألمانية، ومصوب بندقيته إلى الأمام.

تمسك هي بماسورة بندقيته، وتشدها إلى الأمام ثم إلى الخلف، وترفعها ليرتطم ذقنه بها فيتركها ويمسك ذقنه، فتخرج من مكمنها وتضربه على أم رأسه بخشبة المقبض، فيتكوم هو الآخر على الأرض إلى جوار صديقه.

تتقدم ممسكة ببندقيتها وقابضة بيديها عليها أكثر، هناك باب مغلق كتب عليه بحروف ألمانية (مخزن ذخيرة)، لكنها لا تعرف هذا، لكنها تقدمت ناحيته، وضربت مقبضه بمقبض بندقيتها فانفتح.

دلفت هي إلى داخل الحجرة، وجدت الكثير من الأسلحة!

للحظة فكرت، ثم أمسكت بحقيبة ملأتها بالديناميت والألغام، وبدأت في نثر تلك الألغام على البوابة، ثم دلفت إلى الحجرة التي وجدت فيها شبيهاتها ونثرت الألغام بداخلها بدورها، وأخذت الحقيبة وملأتها بالقنابل اليدوية، وقد قررت ما ستفعله، سوف تنسف ذلك المقر بأكمله.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في الخارج وقفت ترمق الأفق، وقد أمسكت بقنبلة يدوية، أزاحت القفل الخاص بها، وقبل أن تلقيها على المدخل وجدت إحدى النسخ تخرج من المقر، لكنها لم تنتظر أكثر قذفت بالقنبلة على الباب.. وصمت كل شيء إلى الأبد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الحكاية الثالثة
لوحة مورجان
- 1 -

أنت تعرف الفنان (مورجان ينبرن)، وإن كنت لا تعرفه فسوف أعرفك به في السطور القادمة، هلم إلينا، تقدم ولا تخف، إن ذلك السكير هو (ألفونسو موراي) خادمه الذي لا يكف عن اختلاق الأساطير، هذا سكير أبًا عن جد، كما يقول عن نفسه متباهيًا، يصب له الساقي (نوفاك) مزيدًا من الشراب فيجرعه مرة واحدة ثم يناوله القدح فارغًا مطالبًا إياه بالمزيد.. تقول من أين يأتي بكل تلك الأموال؟! أقول لك إن (مورجان) يعطيه الكثير يا سيدي، فقط انظر إلى حالته وملابسه وسوف تعرف، وإلا فلمَ لمْ يفارقه إلى الآن رغم تلك الأساطير التي يقصها علينا؟

(هقققققق!)

ينفلت من فمه الفُواق، فيمسح فمه بظهر يده ويمصمص أسنانه العفنة، ويقول ورائحة الخمر تفوح منه:

- لا أكتمكم سرًّا، لقد رأيتهن معي في الغرفة، لقد خرجن ليعلنَّ لي أنهن أحياء، عارية أجسادهن تفوح منها رائحة الجازولين، الذي استخدمه سيدي في رسمهن!

يصمت قليلًا ثم يضيف بعد أن يطلق سبة للساقي (نوفاك) كي يناوله المزيد من الجعة، فيهرع إليه الأخير ويصب له الكثير في قدحه الذي لا يفرغ، يجرعه مرة عاشرة، ويضيف مبتسمًا في شمم:

- لقد مارست معهن الجنس.. (هقققق).. كلهن.

يقولها ثم تسقط رأسه على الطاولة ويطلق شخيرًا عاليًا.

ثوان ويفيق كأن شيئًا لم يكن، ويسب (نوفاك) الذي يهرع ليملأ قدحه، مرة أخيرة، يجرعه، ثم يطوح به في الهواء ليتهشم في الركن البعيد أو على رأس أحدهم، يلملم قدميه ويجرهما إلى خارج الحانة وهو يسب العالم بأسره.

دعنا نقترب من (نوفاك) هذه الليلة، فمزاج (ألفونسو) عكر جدًّا، ربما في ليلة أخرى حكى لنا كل شيء.. لا لن نغادر الآن، فـ (نوفاك) يعرف الكثير أيضًا.. اقترب سوف يحكي لنا لا تقلق.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

يلملم (نوفاك) بقايا الكأس المحطمة التي طوح بها السكير (ألفونسو)، ثم يضيف:

- مسكين، لقد رأى الكثير من سيده.

يعود إلى مقعده الطويل، ويعصر إسفنجة مليئة بالخمر في الحوض، وينظف أمامه وهو يضيف:

- لقد حكى لي تلك القصص مرارًا.. سوف أحكي لكم منها.

هناك في ذلك اليوم كان ينظف بعد أن فرغ سيده.. ربما كانت أول مرة يرى فيها شيئًا كهذا، وقتها كان قد مر على استلام عمله يومان.

فرغ سيده من تلك اللوحة.. كان يخدمه ويلقي ببصره مختلسًا النظر لما يفعله سيده، الكثير من زجاجات الخمر في كل مكان ملقاة هنا وهناك، إن سيده يسرف في الشراب حقًّا وهو يعمل، أو بالأحرى -كي نكون أكثر دقة- يرسم، لقد اعتاد في يوميه السابقين أن يلملم كل شيء خلف سيده بعد أن يلملم سيده بقايا جسده من ليلته، ويصعد إلى غرفة نومة، ويلقي بجسده على الفراش ويغوص في نوم عميق لا ينهض منه إلا ليفرغ مثانته، ثم يعود مرة أخرى ليكمل نومه.

ينتظر (ألفونسو) سماع شخير سيده، ويبدأ عمله.

يمسك الزجاجات الفارغة ويلقي بها في الكيس بعد أن يجرع ثمالتها ويأتي عليها تمامًا، الكثير من أعقاب السجائر، بعض الأنابيب الفارغة.

يلقي نظرة بطرف عينه على اللوحة التي لم يفرغ منها سيده بعد، ويكمل عمله.. هو لا يهتم بتلك الأمور، حتى عندما استلم عمله لم ير لسيده أية أعمال أو لوحات له في بيته، لقد نسي أن يسأله عن ذلك، لكنه سيفعل على كل حال، فأين تذهب لوحاته عند فراغه منها؟!

مثانته!

لقد امتلأت مثانته مرة أخرى في دقيقتين، الخمر تفعل الأفاعيل بمثانته كما هو واضح.

يترك الكيس المليء، ويترك زجاجة لم تفرغ بعد على منضدة قريبة، ويهرع إلى الحمام.

يفرغ مثانته ويعود إلى عمله.. هنا يلاحظ شيئًا غريبًا.

زجاجة الخمر قد فرغت تمامًا!

كيس المهملات قد تمزق من الجانب الأيمن، وخرجت الزجاجات كلها منه وبعض المهملات الأخرى!

هذا غريب!

لم يذكر سيده أن لديه قطًّا أو كلبًا أو أية حيوانات أليفة تعيش معه؛ لذا بدأ البحث عن كلب أو قط متسلل، الباب مغلق جيدًا، الشرفة بها فرجة بسيطة، لكنها تسمح بتسلل حيوان صغير منها، وتسمح له بالفرار بسرعة كذلك.

أغلق تلك الفرجة، وجثا على ركبتيه ليلملم أشلاء الكيس، نهض أمام اللوحة تمامًا، هنا لم يدر بنفسه إلا وهو يرمقها بكل الفضول.

جمال أنثوي رائع، تفاصيل رسمت من لحم ودم ليست ريشة فنان أبدًا.. الألوان تبدو طبيعية أكثر من اللازم! كل هذا جميل، لكن الأجمل من كل ذلك أن تلك الفتاة كانت عارية تمامًا كما خلقتها أمها.. لكنها لم تكتمل بعد.. ذراعها اليمنى وقدمها اليمنى لم يكن أي منهما قد رسم بعد، فقط مكانهما خطوط ورتوش تشي بأن سيده سوف يكملهما عن قريب.

وقف يتأمل اللوحة ولم يجف زيتها بعد، الشبق يتسلل إليه والزبد يخرج من ركن فمه، خطر في باله أن يلمس القماش المبتل، لكنه عدل عن ذلك فربما طُبعت يداه على القماش ولطخت اللوحة وذهب جمالها وذهب عمله أيضًا، هي لم تجف بعد، الرائحة ليست مقبولة، هذه ألوان رديئة كما هو واضح على حسب خبرته التي لا وجود لها، لكن جمال الرسم ودقة التفاصيل تشي بيد فنان ساحر، إن سيده لساحر بالفعل.

ترك اللوحة وعاد مرة أخرى لعمله، في عقله دارت الكثير من الأفكار، التي جعلته يترك عمله مرة أخرى، ويرمق اللوحة مرة أخرى، لكنه هذه المرة رأى شيئًا جعل الدم يتجمد في عروقه!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- 2 -

في عربته التي يجرها الخيل استقر الملازم (إبراهام) على المقعد الوثير، وجلس يقرأ الأوراق التي تم عرضها عليه، لقد جلبوه من الشمال إلى الغرب كي يمسك تلك القضية.

يقف الحُوذي بعد أن يلسع ظهر الحصان، ينظر الملازم من الشرفة المغطاة بالستائر إلى المنطقة التي توقف فيها، فيجد حشدًا لا بأس به من المارة.

يخرج من العربة بحذائه الكلاسيكي وقبعته، ويتقدم ناحية الحشد بتؤدة، يفسح الحشد البسيط الطريق له كي يرى ما يرونه.

كانت جثة رجل متسول ملقاة على الأرض، وقد انتفخت تمامًا وبلا رأس!

تقدم أحد الواقفين ووقف إلى جوار (إبراهام) وأضاف:

- كانت جثته ملقاة في برميل القمامة رأسها إلى أسفل وقدماها إلى أعلى.

قال هذه العبارة، ثم أردف وهو يشير إلى مطعم صغير قريب:

- أنا صاحب ذلك المطعم، لقد شممت رائحة جثته من مطعمي، لا بد أنه على تلك الحالة منذ أيام.. خرجت كي أرى مصدر تلك الرائحة، خاصة وقد بدأت أفقد الزبائن بسببها، فوجدته، حالته كما ذكرت، حسبته نائمًا أو ثملًا أو شيئًا من ذلك القبيل، لكنني وجدته بلا رأس وقد انتفخت جثته كما ترى.

جثا الملازم (إبراهام) على قدميه كي يرى عن قرب، أخرج من حقيبته قفازًا، ارتداه وبدأ في فحص الجثة.

كانت رقبة الرجل مفصولة تمامًا عن جسده، وحواف الرقبة تشي بأن القاتل قد استخدم نصلًا حادًّا جدًّا مما يؤكد أنه كان قاصدًا ما يفعله.

لكن ما هو الدافع؟

هذه الملابس تدل على كونه متسولًا لا يملك شَرْوَى نَقِير، ربما نشبت هنا معركة بينه وبين أحدهم؟ لكن لا وجود لأثر مقاومة، خاصة أن الرجل ضخم الجثة.. ربما حز رأسه من الخلف؟

أفكار كثيرة دارت في رأسه حتى وصلت باقي الفرقة بسيارتهم، أمرهم بحمل الجثمان وإرساله إلى الطب الشرعي فورًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في مكتبه جلس يقرأ التقرير الخاص بالطبيب الشرعي، الذي كان واضحًا: هذا الرجل تم حز رأسه من الخلف وهو ثمل؛ لذا لم تكن هنالك مقاومة..

الجثة مضى عليها يومان تقريبًا.. وأخيرًا.. هذا الرجل كان في جوفه شراب غالٍ لا يقدر على شرائه، والأغرب من هذا هو أن ذلك الشراب لا يباع هنا أبدًا، بل يباع في الغرب حيث يقدر على شرائه المقتدرون.

إذن القضية معقدة من بدايتها.

ليست جريمة القتل الأولى كما تعلمون، وليس هذا المتسول الأول الذي يقضي نحبه مقطوع الرأس.

إن القصة واضحة.. هذا سفاح يختار ضحاياه من المتسولين، إذن نحن بصدد قاتل متسلسل.

ربما كان مهووسًا أو مجنونًا أو يقتل بدافع ديني، أو أي شيء من ذلك القبيل، هذا ليس قاتلًا عشوائيًّا؛ فالقاتل العشوائي يقتل مجموعة دفعة واحدة لا يربط بينهم أية صلة، لكن هنا حتى الآن لدينا اثنان من المتسولين، والاثنان قد تم ذبحهما من الخلف، والاثنان قد شربا حتى الثمالة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- 3 -

نظر إلينا الساقي (نوفـاك) وناولنـا قدحيـن مليئين مـرة أخرى، وهـو يضيـف:
- لنكمل القصة إذن.. أعلم أنكما جديدان هنا؛ لذا أحب أن أحكي لكما كي تأتيا إليَّ مرة أخرى، ومرة أخرى، ولكيلا تملا من المجيء.. ولسوف تأتيان، أنا أعرف أن قصصي لها من المعجبين الكثير.

قالها ثم أردف:

- لقد وجد (ألفونسو) السيدة تقف أمامه بلا ملابس وبلحمها ودمها، كما رسمها سيده تمامًا!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ترك اللوحة وعاد مرة أخرى لعمله، في عقله دارت الكثير من الأفكار، التي جعلته يترك عمله مرة أخرى، ويرمق اللوحة مرة أخرى، لكنه هذه المرة رأى شيئًا جعل الدم يتجمد في عروقه!

لقد رأى تلك الفتاة من قبل، لكنها لم تكن من لحم ودم، لقد كانت رسمة على ذلك القماش لم تكتمل بعد، وقد كانت في الحقيقة لم تكتمل بعد، كانت تقف تستند بيدها اليسرى وقدمها اليسرى، وتنظر إليه هو بالذات.

أما عن يدها اليمنى وقدمها اليمنى فقد كانتا كالمبتورتين، الدماء تنزف منهما على الأرضية!

ارتعدت فرائصه، حاول الصراخ لكنه لم يفعل، حاول تمالك نفسه ورفع زجاجة خمر فارغة ولوح بها في وجه الفتاة.

ابتسمت الفتاة وضمت يدها اليسرى إلى صدرها العاري موارية إياه، وأضافت:

- أنا أرتعد من البرد هل لديك ما يبدد ذلك البرد القارس؟

هنا شعر بضعف ذلك الشيء، وشعر أنه أقوى بكثير، وأنه لا داعي لذلك الخوف؛ لذا ترك الزجاجة، واقترب منها بتؤدة.

إنها جميلة رغم كل شيء، ضعفها ووهنها يشعرانه بنفسه كذكر يافع.. أما عن يدها وقدمها المبتورتين فيمكن التغاضي عنهما.

يقترب أكثر ويتحسس خدها.. ويتجدد الشبق والشعور بحاجته إلى إفراغ شهوته الحيوانية.

يحملها حملًا ويلقي بها على الأريكة، ويفك حزام البنطال.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ضوء الشمس يتسلل إلى عينيه من النافذة، ينهض وعظامه كلها تؤلمه، ورأسه يترجرج، يفرك عينيه وينهض ويتلفت حوله، أين ذهبت تلك العفريتة؟!

لا بد أنها اختفت من المكان الذي أتت منه، تقدم إلى اللوحة ليجدها كما كانت، الفتاة في مكانها داخلها!

ينظر إلى الساعة، إنها الثانية ظهرًا!

هنا يتذكر سيده، لا بد أن ينظف البيت كما اتفق وإلا تم طرده، لكن الدماء في كل مكان، كيف سينظف كل هذا؟!

يسابق الزمن ويمسك قطعة قماش، ينظف كل شيء ويجلس لينتظر سيده الذي ينهض ويأخذ حمامه، ثم يهبط إليه.

يرى (ألفونسو) سيده (ينبرن) وهو يرتدي معطفه ويهبط الدرج بتؤدة، فيهب ناهضًا وينتظره.

يجلس السيد (ينبرن) على الأريكة، وينظر إلى اللوحة التي لم يفرغ منها بعد، وينظر إلى (ألفونسو) في وقار ويضيف: - إن لم يكن لديك ما تقوله فانصرف واتركني كي أكمل عملي.

ينظر (ألفونسو) إليه:

- حقيقة يا سيدي، لا.. لا.

- إذن انصرف ولتكن هنا قبل الفجر.

- حاضر يا سيدي.

وهكذا حاول أن يصارحه، ويقول له ما حدث، لولا أن عُقد لسانه وكأنه قُيد بحبل غليظ؛ لذا أخذ بعضه ورحل وآثر الصمت.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- 4 -

الساعة الواحدة والنصف صباحًا.. لا يوجد أحد في ذلك الطريق، الطريق خال تمامًا من المارة، لا يوجد أحد تقريبًا، فقط كلب يعوي هنا ويرد عليه آخر من هناك، وقط يعبث في صندوق قمامة فيضربه قط آخر أقوى منه، فيقفز تاركًا الصندوق بأسره له وهو ينظر إليه في يأس.

الآن نرى ذلك الرجل البدين، وهو يسير بتؤدة في ذلك الزقاق، يقف أمام صندوق القمامة إياه، يضرب القط المنتصر يمسكه من ذيله ويطوح به خارج الصندوق.

ويعبث هو بداخل الصندوق عسى أن يجد ما يواري ظمأه من الجعة، أو من الطعام ما يسد به جوعه.. هناك كسرة خبز، يمسحها في ملابسه ويلقي بها في فمه ويلوكها في تلذذ.

يدس يده أكثر داخل الصندوق فيمسك بشيء ما، يجره جرًّا إلى الخارج فيجد ما خمنه.. إنها جثة شخص ما! لكنها دون رأس!

يترك يد الجثمان ويتلفت حوله كاللصوص، لا يدري ما الذي يفعله ولا يلوي على شيء، يترك المكان بأسره ويهرع إلى مكان آخر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بعد ذلك المشهد بأيام..

نرى ذلك الرجل مرة أخرى لكن في زقاق آخر، يبحث مرة أخرى عن ضالته، نعم إنها الواحدة صباحًا مرة أخرى.

الآن نرى ذلك الرجل الذي يسير بتؤدة ويقف سادًّا على البدين طريقه، سادًّا الزقاق.

ينظر الرجل البدين إلى الرجل الثري الذي يرتدي معطفًا أسود جلديًّا باهظ الثمن، ويبتسم ابتسامة بركن فمه، ويمسك بقطعة حديد ويلوح بها في الأفق.

لقد وجد مبتغاه، سوف يقضي عليه ويأخذ ما معه من نقود أو متاع أو طعام.

لم يحرك الرجل ساكنًا، فقط أدخل يديه في جيب معطفه وأخرج كيسًا مليئًا بالنقود، واليد الأخرى أخرجت زجاجة خمر باهظة الثمن، وضع ما كان بيديه على الأرض وغاب عن نظر البدين.

هرع البدين إلى الزجاجة وكيس النقود، تناول الاثنين، فك الكيس ليجد الكثير من القطع الذهبية، شق فانلته ولف الكيس حول بطنه، تناول الزجاجة وفتحها وبدأ في فضها في أمعائه.

في تلك اللحظات نرى الرجل الثري، لكن هذه المرة في الناحية الثانية من الزقاق، بالتحديد خلف البدين الذي انهمك في شرب الزجاجة وتحسُّس بطنه كل ثانية كأنه جُن.

يتقدم الرجل الثري بتؤدة خلف البدين، ويخرج من جيبه سكينًا حادًّا يلتمع نصله بفضل الإضاءة الواهنة القادمة من ذلك العمود الكهربي.

خطوة أخرى ونراه يقف خلفه تمامًا، يرفع السكين ويمسك برقبة البدين الذي لم يلوِ على شيء، ويحزُّ عنقه حزًّا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- 5 -

«شاهِد دبوسًا والتقطه، وانظر كيف سيكون حظك سعيدًا طوال اليوم».

هكذا يقولون يا سيد (إبراهام).

يقولها المحقق (بول فريد) للمحقق (إبراهام)، الذي أضاف وهو ينظر من الشرفة ويمسك بمفكرته الصغيرة التي استقرت في يده اليمنى:

- أرجو أن يتحقق ذلك يا (بول).. الأمر معقد.. إلى الآن ثلاث جرائم بذات النسق والكيفية، والتشابه بينه الضحايا في الصفات.. متشرد، ثمل، في زقاق خلفي، في أمعائه نبيذ غالي الثمن.

صمت وأضاف:

- هذا الرجل يختار الضحية كما يريد، كأنه لديه المواصفات التي يسير عليها.. هذا قاتل متسلسل، لكن أين الخيط؟ أين ذلك الدبوس الذي نشاهده كي نلتقطه؟

نظر إليه (بول) وهو يلقي بالتقرير الخاص بالطبيب الشرعي على مكتب (إبراهام) ونهض قائلًا:

- سكين ثقيل الوزن يمسك به القاتل، يأتي من الخلف ودون أدنى مقاومة من الضحية التي تكون ثملة من الخمر الغالي الثمن، الذي من المؤكد أن يكون القاتل قد جلبه معه، وهو من أعطاه لضحيته كي تتناوله قبل أن (ككككككك) يحز رقبته من الخلف.

يصمت ويدنو من (إبراهام)، ويضيف:

- لا بد أن نستدعي كل من رأى الحادث أولًا، أو من له صلة بالقتيل، هذا إن كان لديه أقارب أو معارف أو حتى أصدقاء أو أي أحد يهتم به.

دون أن ينظر إليه (إبراهام) أضاف:

- لن ننتظر هنا ونخمن، لا بد أن يكون هناك فريق من الشرطة يعي ما يفعله، يكون متواجدًا ليل نهار، وينتشر في المنطقة بأكملها.. أعلم أن ما لدينا لا يكفي المنطقة كلها، لكن لنجعلهم يعملون بكامل قوتهم؛ لعلنا نخرج منهم بشيء، لعلهم يعثرون على أي شيء.. أي شيء.

- حسنًا، سوف أفعل.

- صحيح يا (بول)، أريد كل ما كتبه من كانوا قبلي كي أستفد منهم، يقولون دائمًا في الأمثال: «ابدأ من حيث انتهى الآخرون».

ابتسم (بول) وأضاف:

- هذا إن كان هناك ما كتبوه.. صدقني لقد عشت مع معظمهم، ولم يكمل أحد، لقد رحلوا قبل أن يخط قلمهم سطرًا، لكن أنت.. أعلم أنك غيرهم؛ لذا سأساعدك بحق ولن أقصر وسأبذل كل جهدي كي نحل تلك المعضلة.

- أرجو ذلك.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

خلال يومين كان (بول) على قدم وساق، هو وآخرون جمعوا خلالهما الكثير من الشهود الذين لم يروا أي شيء، وجمعوا خلالهما الكثير من الأقوال، ونسبوا الكثير من الاتهامات الملفقة للكثيرين.

لكن في النهاية لم تغلق القضايا، ولم يصلوا إلى شيء جديد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- 6 -

جلس (ألفونسو) أمام الساقي (نوفاك)، وجلسنا أمامه، وطلبنا له ثلاث كئوس من الجعة، عصر (نوفاك) الإسفنجة وهو يقول موجهًا حديثه إلى (ألفونسو): - لقد حكيت لهما مغامراتك القصيرة مع تلك اللوحة، لقد تركتهما بالأمس ولم تقص عليهما شيئًا؛ لذا توليت أنا المهمة.

قالها وضحك بأسنانه النخرة، ثم تجشأ كالثور، وأضاف: - هيا.. قص عليهما ما حدث بعد ذلك.

جرع (ألفونسو) الأقداح الثلاثة مرة واحدة بعد أن سكبها جميعًا في قدح كبير، ثم سكبه في معدته كالخنزير، وقال وهو يشير بإصبعه في الخواء: - تلك الليلة كانت غير سابقتها، فلقد رسم سيدي.. أقصد.. لقد رسم ذلك الوغد اللوحة وفرغ منها تمامًا.. لقد نمت مع جسد كامل، وتجرعت الكثير من الخمر حتى إنني غبت عن الوعي تمامًا داخل الشرفة.

نهضت وكل عظمة من جسدي تؤلمني بشدة، لكن للحظة تناهى إلى مسامعي صوت سيدي، لقد نهض ورأى كل شيء، هذا أكيد.

لم أخرج وظللت ماكثًا أستمع إلى حديثه مع أحدهم.

كان يقول شيئًا عن بيع اللوحة لثري في إقليم الغرب يريد أن يدفع الكثير فيها.. حتى هنا هذا جيد.. لكن غير الجيد هو أن من أجاب حديثه هو صوت فتاة أضافت برقة: - سوف أفعل سيدي.. كما تريد.

تملكني الفضول كأي متلصص يحترم نفسه؛ لذا نظرت عبر فرجة الستائر الموضوعة لتحجب ضوء النهار من التسلل إلى البيت، فوجدت الفتاة التي تتحدث إلى سيدي هي نفسها التي ضاجعتها وكنت معها بالأمس، الآن أنا في كامل وعيي هذا لا شك فيه، أدقق النظر إليها وأرى الشيء الأغرب.. الفتاة تنهض وتسير برقتها المعهودة وتدخل إلى اللوحة ويسيل جلدها على القماش وتتحول إلى لوحة زيتية كما كانت!

فركت عيني وشددت الستائر مرة أخرى وتواريت عن أعين سيدي، حتى غادر سيدي الغرفة.

خرجت أتحسس قدميَّ من الشرفة إلى الغرفة، مررت باللوحة ولم يتركني فضولي مرة أخرى كما تعرفون؛ لذا وقفت أتفحصها جيدًا.. هذه لوحة زيتية عادية لكن!

- هل أعجبتك (لوسي)؟

أتى الصوت من على يميني، كان صوت سيدي بوقاره المعهود، يقف ينظر إلي في ثبات ويضيف: - أنا أعرف ما فعلته منذ أول ليلة يا (سوس)!

لم أكن أعرف أن (ألفونسو) هي (سوس)، لكن لا أعلم وقتها لم ارتعدت ولم شعرت وكأنني فعلت مصيبة؛ لذا آثرت الصمت.. وأضاف هو وهو يتقدم ليجلس على مقدمة أريكته المفضلة أمام اللوحة.

- صدقني أنا لست ساحرًا.

- ...

- فقط هو الإيمان!

- ...

- هل تعلم أن (لوسي) هي أجمل ما رسمت؟

قالها وأشعل غليونًا أسود له يد بنية، وسحب منه نفسين، نفخهما في الهواء، وأضاف: - أنا لا أرسم لوحات يا (سوس)، بل أرسم لحمًا ودمًا!

أنا أقف لا ألوي على شيء، أنصت إليه فحسب وهو يتحدث: - الأثرياء لا يبتاعون الأشياء الرخيصة.. دائمًا يبحثون عن الجديد، عن المختلف.. لوحة زيتية.. ما المبدَع والجديد في هذا؟ لوحة فُرِش فيها قماش مشدود على برواز من الخشب الأبيض، وبعض الألوان التي وزعتها الفرشاة على ذلك القماش.. ما الجديد؟

لكن ما أرسمه.. (نفث دخان غليونه في الهواء وأكمل).. ما أرسمه شيء جديد، جديد وقيم؛ لذا يتلهفون عليه، ويدفعون لي الكثير.. الكثير جدًّا.

اليوم سوف تأتي معي إلى السيد (غراي).. هو شخص ثري يحيا في إقليم الغرب هناك، المكان هناك بعيد حيث المستنقع القديم.. لذا أنا أريد رفيقًا وسوف تذهب معي.. سوف أعطيك هذه المرة ما يكفيك كي تتجرع نبيذًا جيدًا من (نوفاك)!

- هل تعرف (نوفاك)؟

- قلت لك أنا أعرف عنك كل شيء؛ لذا أحضرتك لتكون معي وخادمي إلى الأبد!

قال كلماته ولم يترك لي الخيار، قال كلماته وغادر بلا أية كلمة أخرى.

وتركني أفكر في كل كلمة قالها، أفكر في كل شيء.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- 7 -

خلف سور المستشفى الكبير تراه يثير في تؤدة ممسكًا بزجاجة فوهتها مهشمة تمامًا، وربما كانت شظايا الحطام قد تسللت إلى داخل الزجاجة واختلطت بالخمر، لكنه لا يأبه أبدًا؛ فهو محروم من ذلك الخمر الجيد؛ لذا يمسك بالزجاجة كأنها كنزه الثمين، يجرع منها كالخرتيت ويحتضنها تحت إبطه، يبحث عن أي شيء آخر، ثم يسمع صوت خطوات أقدام قادمة من الخلف، صحيح أن الساعة تخطت الثانية صباحًا وقليلًا، والضوء واهن جدًّا إلا من أعمدة الإنارة القادمة من داخل المستشفى ذاتها، السور عال بما لا يسمح لهرب المجانين، نعم إنه مستشفى مجانين كما تعلم؛ لذا فالسور عال وينتهي بتلك الأسلاك الشائكة التي تراها.

هو لا يهاب المجانين، لا يهاب المتسولين مثله، لا يهاب أي أحد، يتحسس الزجاجة، كلا لن يستعمل إياها كسلاح؛ فما زالت تحتوي على رشفتين؛ لذا ضمها أكثر إلى صدره وإبطه، وتحسس جيب بنطاله الخلفي، إنه النصل الحديدي، ما زال هناك إذن، فليقترب ذلك الأحمق الذي سولت له نفسه أن يدنو منه.

خطوات الأقدام تقترب بثقة، إذن هذا القادم لا يأبه لحياته ولا لموته، التفت بغتة ليجد كلبًا أجرب ينظر له في عته وبلاهة، يتشمم كيسًا أسود يمزقه بمخالبه ويأخذ منه شيئًا ويأخذ ذيله بين فخذيه ويهرب.

يبتسم هو وينظر إلى الكيس، ويقترب منه أكثر، يجثو على قدميه ليتفحصه، هذا الكيس لم يكن هناك من قبل، هذا واضح وإلا لأخذ ما فيه قبل ذلك الكلب المحظوظ، لكن مهلًا هناك!

لم ينتظر أكثر قبل أن يتلقى ضربة موفقة على رأسه بحجر كبير جعلته يهوى على جانبه ويخرج الزبد من فمه، وتتحطم الزجاجة تحت كرشه العظيمة.

نرى الغريب الذي ضربه يقترب ليدخل دائرة الضوء، ونرى ملامحه جيدًا الآن، لكن ليس هذا وقت الإفصاح عن هويته كما هو واضح.

نجده قد جثا على ركبتيه، وقد أخرج أنبوبًا شفافًا تدلى من آخره سن مفرغ كالإبرة.

يمسك ذراع الرجل الذي أخذ يئن، ويحاول الإمساك برأسه، ويدس السن في شراييه.

يبدأ سائل الحياة في التدفق عبر الأنبوب، ليجد طريقه إلى الكيس الشفاف الذي ينتهي فيه الأنبوب.

يحاول الرجل تحريك رأسه، لكن الرجل ينهض ويمسك الحجر مرة أخرى، ويهشم هذه المرة به رأسه تهشيمًا، يقف كلب أجرب على بعد يراقب ما يحدث ويخرج نباحًا متقطعًا، فيمسك الرجل سكينه ويحز لسان الرجل حزًّا ويلقيه إلى الكلب، الذي يلتقطه ويهرع هاربًا من المشهد بأكمله.

يمتلئ الكيس عن آخره بالدماء، فيأخذ الرجل خرطومه وكيسه هذا، وينظر عبر الأفق ليتشمم الهواء، ثم يغادر المكان، تاركًا جثمانًا بائسًا هو الرابع أو الخامس له.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- 8 -

أنا شرطي فاشل، هذا ما يبدو عليه الأمر، لقد استدعوني كي أحل الأمر، وها هو الأمر يتعقد أكثر.. أكثر من جريمتين منذ قدومي، وكأنني لم أحضر، ووجودي كالعدم كما ترى.

ينظر إليه (بول)، ويضيف:

الحقيقة أن الأمر جد معقد، هذه المرة قد استعمل حجرًا وهشم به رأس الضحية، لكنَّ هناك على الأقل شيئًا جديدًا قد اتضح لنا.

يمسك ورقة من مئات الأوراق التي وضعت على المكتب، ويقرؤها دون أن ينظر إليها، الرجل يدس محققًا في ذراع الضحية ويمتص به الدماء، هذا كان واضحًا هذه المرة؛ لذا ذكره الطبيب.

يصمت (بول)، ثم ينظر إلى (إبراهام)، ويضيف متسائلًا: - لا يبدو أن الرجل مصاص دماء مثلًا.

جلس (إبراهام) خلف مكتبه وأضاف كأنه قد عثر على الحل: - لمَ لا تقول إن الرجل طبيب يعالج مرضى فقر الدم من الأغنياء ليتقاضى منهم مالًا؛ لذا وجد أن المصدر الوحيد لجني الدماء هو حصد المتسولين والمشردين ممن ليس لهم أهل يسألون عنهم، يأخذ دماء الفقير بلا ثمن.. أو لنقل الثمن حياة الفقير، ليعطيها إلى الغني بمبالغ طائلة.

- لا أعتقد ذلك.. لكن ربما كان حلًّا مؤقتًا يجعلنا نبحث عن القاتل وسط الأطباء، ليكن، أعط الأوامر كي ننطلق للبحث عن طبيب يجيد نقل الدماء.

- لا بل سأعطي أوامري بالبحث عن كل الأثرياء أو فاحشي الثراء، الذين كانوا في الأصل فقراء.

قال عبارته ونظر إلى (بول)، الذي نظر إليه منبهرًا بعبارته وبتفكيره، فبادله (إبراهام) نظرة ذات معنى، وابتسم كأنما انتصر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- 9 -

اليوم سوف تأتي معي إلى السيد (غراي).. هو شخص ثري يحيا في إقليم الغرب هناك، المكان هناك بعيد حيث المستنقع القديم.. لذا أنا أريد رفيقًا وسوف تذهب معي.. سوف أعطيك هذه المرة ما يكفيك كي تتجرع نبيذًا جيدًا من (نوفاك)!

- هل تعرف (نوفاك)؟

- قلت لك أنا أعرف عنك كل شيء؛ لذا أحضرتك لتكون معي وخادمي إلى الأبد!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كلماته ترن في أذني (ألفونسو) الذي يقف ينتظر سيده أمام مقود السيارة، في رأسه تدور مئات الأفكار.. هذا الرجل ساحر أو شيطان هارب من سَقَر، هذا رجل يعرف عني كل شيء، لكن الجميع يعرف أنني أضيع نقودي كلها في الشراب، وكلهم يعرفون أنني أذهب كل يوم إلى تلك الحانة، حانة (نوفاك) العجوز.

- انطلق!

أتى الصوت من المقعد الخلفي، فالتفت كالملسوع ليجد سيده قد استقر فيه بقبعته السوداء ومعطفه الأسود بدوره.

متى حضر؟ وكيف؟ لم يسمعه.. ربما لإنه كان غارقًا في أفكاره.

دهس دواسة البنزين، وغادر المكان.

دون أن يلتفت أضاف:

- إلى أين يا سيدي؟

- سر فقط!

- إجابة مقتضبة جدًّا وغريبة، لكن ما دمت تريد ذلك.

قالها وزاد سرعته.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ساعة من السير في الطرقات حتى انتصف الليل، وبدأت الطرقات في الغرق من المطر الذي انهمر فجأة وأغرق كل شيء.

التحكم في السيارة والاتجاهات سار عسرًا، الأرض صارت زلقة، والمطر ما زال ينهمر بلا توقف.

مرة أخرى ينظر إلى المرآة التي أمامه إلى سيده مباشرة، ويتساءل: - سيدي، البنزين لا يكفي كي...

- خذ هذا المنعطف وقف أمام القصر الذي يقبع عند نهايته أمام المستنقع تمامًا.

- لك ذلك.

للحظة فكر في تلك الفكرة المجنونة.. سوف يتخلص من كل شيء ومن سيده الغريب الطباع.. لا يعلم لمَ واتته تلك الفكرة، لكنها نضجت في عقله وأنبتت نبتة كبيرة؛ لذا أدار مقود السيارة بعنف نحو الجرف، وقفز منها في لحظة، تاركًا سيده بلوحاته وسيارته إلى غياهب الجب، دارت السيارة في الهواء مرتين ثم طارت إلى أسفل الجرف، وانفجرت وصعد اللهيب ليضيء الأفق.. وسقط (ألفونسو) على الأرض يرقب الانفجار المدوي.

لقد مات سيده، لن يهابه مجددًا، لن ينظر إليه تلك النظرات المروعة، لن يشعر أنه مراقب مجددًا.. ولا لوحات مجددًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- 10 -

- إذن لقد مات سيده؟

قالها أحدنا إلى (نوفاك) الذي انهمك في جمع الزجاجات من الطاولات الخشبية بعد يوم شاق، وأخذ يلقي بها في الصناديق كي يستبدلها بأخرى لكن مليئة، ثم أضاف بعد أن دلف من أسفل خشبة وضعت كي تمنع المتطفلين من الدخول إلى ساحة البار مان، وتناول إسفنجة أخذ ينشف بها البار:

- هذا ما حسبه (ألفونسو)! هذا ما ذهب إليه عقله، أو لنقل إن هذا ما رآه.

- ماذا؟! أنت تعني أن الرجل لم يمت! لقد انفجرت به السيارة وانقلبت به مائة مرة في الهواء على حد قولك!

- قلت لك هذا ما حسبه (ألفونسو) مثلك تمامًا، لكن ما حدث شيء آخر.

(توقف للحظة عن النظر إلي ونظر إلى ناحية أخرى).. أيها الرجل كف عن هذا وإلا أوسعتك ضربًا.

قالها لرجل ثمل أخذ يحاول مغازلة فتاة في العشرينيات من عمرها، تقف خلف البار داخل إحدى الغرف، ترتدي قميصًا أبيض اللون، لكنه يظهر أكثر مما يبطن.

قالها ثم قال شيئًا باللغة الإسبانية أو الإيطالية، لتلك الفتاة، وخرج من مكانه ليغلق الباب عليها بعد أن دفعها دفعة رقيقة إلى الداخل أكثر، ثم أمسك الرجل من تلابيبه وأخرجه إلى خارج الحانة، وركله في مؤخرته، وأغلق الباب خلفه.

نظرت حولي لأجدنا آخر اثنين داخل الحانة، هذا الرجل ضيق الصدر وسريع الغضب؛ لذا لا بد أن نرحل وإلا أوسعنا ضربًا؛ لذا أخرج صديقي بعضًا من النقود، ووضعها على البار وأضاف:

- أرجو أن تتحمل وجودنا لبضع دقائق أخرى.. نحن نريد السماع أكثر؛ فالقصة راقت لنا.

نظر الرجل لنا بتشكك، لكنه تناول النقود، ووضعها في الدرج وهو يقول شيئًا بذات اللغة التي سب بها الرجل الذي تم ركله منذ دقيقة، لكن على ما يبدو أنها صفقة رابحة بالنسبة له، سأله صديقي بإنجليزيته وبخبث واضح:

- لماذا طردت هذا الرجل؟

وهو يمسح البار أضاف بعد أن نظر إليه هو الآخر نظرة الخبير:

- إنه هنا لأنه يريد ابنتي، يريد مواعدتها رغمًا عنها وعني.

- لك كل الحق حقيقة.

كاد يقول له إن ابنتك قد أغوتنا نحن بدورنا بذلك القميص، لكنه عدل عن الأمر، وأضاف وهو يجرع ما بقي من الكوب في فمه:

- لتكمل إذا سمحت.

نظر الينا، وأضاف بإنجليزية جيدة:

- حسنًا، سوف أكمل لأنني فقط أريد ذلك، ثم إنكم مسلُّون، تسلونني حتى أنتهي من كل شيء حتى طلوع النهار، لا لأنني أخذت منكم نقودًا.

- نعم نعم، نعلم ذلك.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- 11 -

وقف (ألفونسو) لدقيقة يرقب النيران تلتهم كل شيء، ثم أفاق لنفسه، فأخذ بعضه وركض.

ركض كما لم يركض من قبل نحو الغابة حتى لا يراه أحد.. أخذ يركض وهو ينظر خلفه كأن أحدهم يطارده، أعصابه اختلت تمامًا، لم يعد قادرًا على التحكم في قدميه، كأن قدميه تركضان وحدهما، عندما شعر أنه ابتعد عن مكان الحادث توقف، لكن قدميه لم تطيعاه، فقط سقط على ركبتيه وأخذ ينتحب، واضعًا كلتا يديه على وجهه.

- لماذا تبكي؟!

أتاه الصوت، صوت وقور، صاحبه يقف أمامه مباشرة، صوت يعرفه جيدًا؛ لأنه عمل معه بل وفي داره!

أزاح كفيه عن وجهه ليرى المتحدث، دقات قلبه تتزايد لأنها تعرف من المتكلم.

هنا أضاف الرجل الوقور:

- هلا نكمل ما جئنا من أجله!

هنا رآه، لقد علم أنه هو، دقات قلبه قد علمت أنه هو، كيف لم يمت؟! لقد احترقت السيارة به؟! دقيقة ظل يرمقه، ثم أضاف والدموع تنهمر من عينيه كالطفل الصغير:

- كـ .. كـ .. كيف؟! لقد انقلبت السيارة وأنت داخلها!

ابتسم (ينبرن) ثم صارت عيناه تتقدان نارًا.. حمراوين كالدماء، فتح فاه تملؤه الدماء، وأضاف:

- في (أوروبا) قديمًا كان الاتهام بالسحر يعني أحد أمرين، إما أن تتمكن المتهمة من إثبات براءتها.. وإما أن تدان فيتم عقابها بالإعدام حرقًا!

قال ما قال، ثم أضاف:

- المشكلة في الحالتين أن الضحية لم يكن متاحًا لديها خيار آخر؛ لأن أشهر اختبار لإثبات براءة الساحرة من عدمها كان رميها في الماء لكي يختبروها غرقًا.. فإن طفت وتمكنت من العوم دل ذلك على جرمها، فتدان، وتؤخذ لتعدم حرقًا أمام الجميع على الصليب الخشبي.

أو.. تثبت براءتها فتغرق في الماء، وتعلن نزاهتها أمام الجميع من هذا الجرم الذي اتهمت به.. وليرحمها الرب ويطيب ثراها!

صمت برهة تشمم فيها الهواء كأنه ذئب في البراري، ثم أضاف:

- ميتة في الحالتين كما ترى.. أما الرجال فلم يعنهم هذا الأمر.. فلقد كان إبليس يهوى مطارحة الساحرات الغرام في الغابات المظلمة ليلة السبت المقدسة.. بينما كان يوزع عقود التحالف وشراء الأرواح على الرجال في المقابل.. إبليس كان الوحيد الذي يعرف التفرقة العنصرية في ذلك العصر.

صمت مرة أخرى كأنما يتذكر شيئًا ثم أضاف:

- في يوم ما مع اشتداد مطاردة المهرطقين تزايدت مقاومتهم وتزايدت ضراوة الشعب الذي يدافع عنهم، أرسلت الكنيسة يومًا ما اثنين من الرهبان الدومنيكان إلى مدينة (كروديس) للبحث عن المهرطقين، ولكن المواطنين الغاضبين انقضوا عليهما وقتلوا أحدهما.

- والآ.. خخخررر؟

قالها (ألفونسو) لسيده الذي أجابه وهو ما زال واقفًا أمامه:

- الآخر لاذ بالفرار كأي جبان يحترم نفسه.. هذا الجبان كان فنانًا، فنانًا يحيا على الكفاف، خسر والديه في سن صغيرة، تأثر وقتها بموتهما، ولم يجد ما ينفقه، أو من ينفق عليه؛ لذا عاش على الرسم، يرسم لوحات ويبيعها بثمن بخس كأي رسام يأكل الحبوب كالبهائم والطير، طوحته الدنيا يمينًا ويسارًا حتى كاد يموت جوعًا.. وقتها تلقفته الكنيسة واعتزل الناس وصار راهبًا، لكن الكنيسة لم تحمه من الناس أو من الشيطان؛ لذا تحالف مع الشيطان، لقد أتاه الشيطان ومن معه -الثالوث الشيطاني ثالوث الظلام.. (بعلزبول) و(لوياثان)- وكتبوا بينهم العقد.. ووقعه الرجل بدمه، أصيب وقتها بصرع، ولم يلو على شيء، فقط كان هناك يوم للالتزام بالعقد، وتم حمايته من الناس، وتم حمايته من الكفاف لعدم قدرته على العودة إلى الكنيسة مرة أخرى، فلو عاد لقتل، وذبحه الشعب الذي استولى على الكنيسة؛ لذا لم يجد سوى الشيطان، أصيب بشلل مؤقت في ساقيه، ثم أخذ الشيطان روحه، ولم تبق روح له وصار خالدًا، بل أشهر رسام على وجه الأرض.

كان العقد واضحًا.. الخلود ورسم بالدماء يبقى إلى الأبد هو الآخر، لكن لا بد من قرابين، لا بد من دم طازج يتم الرسم به أو لنقل يتم استخدامه، والباقي على الشيطان.. فقط متسكع أو اثنان في اليوم.

كل هذا وعينا (ألفونسو) تتسعان عن آخرهما، والبكاء لم يتوقف قط، فقط أخذ يرتعد، وقال بِفم تصطك أسنانه:

- هذا الفنان هو.. أنت؟!

- نعم.. هو أنا.... واليوم سأخيرك بين أمرين.. إما أن تكون قربانًا كمن سبق، أو أن تكون خادمًا لي وتبيع لي روحك؛ كي أبقى سنين أخرى.. أو...

نهض (ألفونسو) وما زالت قدمه ترتعد، وحاول تقبيل يد سيده، لكن الرجل أمسك به من تلابيبه، ودفعه إلى الخلف حتى ارتطم ظهره بشجرة، وأضاف بصوت كالزئير:

- لن أنتظر أكثر أيها الحيوان، أنت لي أو لي.. لا خيار لك.. أو أن تحضر لي الأرواح كبديل لك، أو القرابين كبديل لك ما دمت حيًّا.

هز (ألفونسو) رأسه أنه يعي ذلك، وأنه موافق تمامًا، وقبل يديه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- 12 -

كانت تلك اللحظات قاسية علينا، وقد صارت عيناي وعينا صديقي كالطماطم من فرط التركيز والإنصات.

قلت أنا بعد أن صمت (نوفاك):

- إذن لقد قبل (ألفونسو) أن يبيع روحه.

- لا.. بل يجلب الأرواح، والقرابين إلى سيده!

كانت هذه الكلمات من (ألفونسو) الذي فتح باب الحانة، ووقف أمامه وهو يحمل مسدسًا ضخمًا، وخلفه رجل مهيب الجسد يتشح بالسواد، عيناه حمراوان كالدم، تتقدان نارًا! ونظر إلى صديقي الملازم (إبراهام)، الذي نظر لي متعجبًا مما يحدث!

لكن (ألفونسو) أضاف وهو يبتسم:

- لقد حسبت أنـك أذكى مـن هذا أيها الشرطي، لقد سمعت عنك الكثير يا (إبراهام).

- كيف تعرف اسمي؟ وكيف تعرف عني الكثير؟!

- أنا أعرف عنك كل شيء، أنا أعرف عن كل من يأتي مكانك كل شيء، لقد...

دون أن ينظر إلي (إبراهام) كنت قد تقدمت أنا بضع خطوات، ووقفت إلى جوار سيدي (ينبرن) وسيدي الآخر (ألفونسو)، الذي ربت على كتفي قائلًا: - أحسنت يا (بول فريد).. أنت بالفعل من أحسن الخدام.

هززت رأسي بالموافقة وبالسعادة؛ لأنني عند حسن ظنهما، وتركتهم وانصرفت، وقفت أمام الحانة أستمع إلى صراخ وعويل السيد (إبراهام)، لقد اعتدت الأمر، لقد أرسلت إليهما من جاءوا قبل السيد (إبراهام)، وسيأتي غيره وسوف أرسله إليهما أيضًا، وسيساعدنا (نوفاك) الساقي الذي يحب الأموال، و(ألفونسو) الثمل دائمًا الذي قَبِل أن يكون مثلي خادمًا يأتي بالقرابين والدماء، لم يقتل سيدي (ينبرن) الكثير، فقط هو من بدأ ونحن من أكملنا كل شيء، لا أنكر أنني قتلت ذلك الرجل البدين خلف المستشفى، وامتصصت دمه كله، لكن إن طُلب منك أنت أن تكون مكاني مقابل روحك فسوف تقبل، لا تدعي المثالية.

(بول فريد)..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

الحكاية الرابعة
لايكانثروبي

- 1 -

رائحة البيتادين، والمزيج من المطهرات والقطن والبنج، السقف الأبيض والمروحة التي تئن فوق رأسه مباشرة، يفتح عينيه ببطء، ويجول بعين ناعسة نصف مفتوحة متفحصًا أرجاء العنبر، لا يعلم من هو أو من أين جاء، لكنه الآن يعلم أنه يفترش فراشًا أبيض قد اتسخ بدمائه أو دماء شخص آخر كان قبله في ذات الغرفة، وفي الفراش نفسه في ذات المستشفى.

الغرفة ذاتها تساقط طلاؤها في كثير من الأماكن، طلاء أبيض حال لونه تمامًا، تكييف متهالك كان يومًا ما يعمل بجد، ثم ذهب عمله سدى فترك عمله وصار كالطفل الصغير يخرج ماءً من فمه، صنع نهرًا في الحائط وجعله كالعجين، دولاب قديم فقد كل شيء عدا أرفف خشبية جاءت من كل رقعة لم تكن تخصه قط، حمام صغير بائس لا يعمل، ومرآة صغيرة معلقة فوق الحوض.

يحاول الجلوس على الفراش ويحاول الصعود بظهره ببطء حتى يجلس نصف جلسة، الخراطيم تقيد يده اليمنى وتمتد إلى محلول معلق على ماسورة صدئة تقف شامخة إلى جواره، ونقطة نقطة يسري في عروقه ذلك المحلول.

يحاول البحث عن مرآة في المكان عله يتذكر شكله، صحيح أن شكل المرء هو الشيء الوحيد الذي لا ينساه، فأنت تعرف من أنت بمجرد أن ترى صورتك معلقة حتى لو كنت فاقد الذاكرة، ربما هذا هراء لكنهم يقولون ذلك.

ينهض بتؤدة، ويترجل إلى المرآة المعلقة في الحمام، كانت متسخة، تساقط طلاؤها في كثير من المناطق، جارًّا ذلك العمود الحديدي معه حتى وقف أمامها، أخذ يتفحص وجهه الذي افتقده، رباه إنه الصداع يضرب من جديد.. متى استطالت لحيته بذلك الشكل، منذ متى وهو يرقد في ذلك المستشفى؟!

عيناه لا تريان جيدًا، حلقه جاف كصحراء رملية وسط النهار، ثم المغص، بطنه يؤلمه، والصداع يدق رأسه مجددًا، يا رباه! إن جسده بأكمله يؤلمه بحق.

يخرج، يستند إلى الكومود الموضوع إلى جوار سريره، ويجلس على مقدمة الفراش.

إلى جواره يئن آخر، ويصرخ بنفاد صبر أن آاااااااااه!

يدلف طبيب شاب نحيل، وخلفه ممرضة قصيرة بدينة تلطخ وجهها بكل مساحيق الكون، تهرع لتلحق برجليه الطويلتين وهرعه المستمر كي يستطيع أن يمر على الجميع، يتحسس عويناته كل دقيقة:

- صباح الخير.. جيد.. هناك أحدهم قد أفاق، يتقدم منه ليقف على حالته هو تحديدًا، ويضيف:

- اليوم أنت أفضل حالًا.. تقارير المتابعة تؤكد ذلك، لقد أجرينا لك الكثير من الفحوصات والأشعة، لا شيء خطير.. هناك نسب مرتفعة من الأملاح والبولينا، لكن العلاج سيكون في البيت كما تعرف.. أنت لا تحتاج إلى غسيل.. حتى الآن لا نعرف لك اسمًا؛ لذا وضعت على ملفك اسم: «مجهول»، غرفة رقم (905).

قالها ثم دنا من أذن الممرضة، قال لها شيئًا، فهرعت تتفقد المحلول الذي نفد، وتعيد تركيب آخر.

فرغت الممرضة من وضع المحلول مرة أخرى، واطمأنت أن كل شيء بخير، وعادت إلى جوار الطبيب مرة أخرى، الذي أضاف:

- هذا آخر كيس محلول، أنت تعلم أنك في مستشفى حكومي، هذا يعني أنك...

- سأرحل، لكن.. أنا لا أذكر شيئًا قط!

وقف أمامه مباشرة، وأضاف:

- ما زلت لا تذكر اسمك؟! غريب! ربما ذلك تأثير الحادث الذي ألم بك، حقيقة وبكل وضوح أنا لا أعلم ما الذي ألم بك، لقد وجدناك أمام باب المستشفى، وجدناك غائبًا عن الوعي، لا أثر لجروح، لا أثر لدماء، لا أثر لأية إصابات أو كسور، أدخلناك إلى الطوارئ، ثم صعدنا بك إلى تلك الغرفة، هي غرفة عادية؛ لأن حالتك لا تستدعي أكثر من ذلك!

أعتذر عن كوني أطلب منك المغادرة، لكن أنت تعلم أن هذا السرير يحتاجه من هو أكثر منك مرضًا، هل تعرف؟ هناك ذلك الرجل (عوني)، وعم (عوني) هذا قد أوصى عليه المكتب الوزاري، لكن لا توجد أسرَّة أنت تعرف تلك الأمور؛ لذا...

- لا داعي للاعتذار، سوف أرحل لأجل عم (عوني) ومكتب الوزارة.

قالها وأمسك رأسه مرة أخرى، فأضاف الطبيب آمرًا ممرضته:

- ضعي له مسكنًا كي يزول ذلك الصداع، حسنًا، سوف أضطر أن أذهب كي أمر على باقي الحالات.. صحيح، سوف تجد مبلغًا من المال يخصك في الأمانات، هذا كل ما وجدوه في جيوب بنطالك ومعطفك وقت الحادث، وكارتًا شخصيًّا ربما يفيدك في شيء.

- حقيقة هو لا يذكر شيئًا، لا يذكر أن هناك حادثًا، لا يذكر اسمه، لا يذكر شيئًا، أمسك رأسه وأضاف وهو ينهض بتؤدة ماسكًا بالحامل الحديدي الذي يتدلى في نهايته ذلك المحلول:

- على كلٍّ سوف ينتهي ذلك المحلول، وسوف أغادر على الفور.

- أعتذر مرة أخرى.

قالها الطبيب وذهب إلى الفراش الآخر، وخلفه الممرضة البدينة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- 2 -

انتعل حذاءً لا يذكر أنه كان حذاءه يومًا ما، وخرج من العنبر بثياب مهترئة قديمة، مر على طاولة الممرضات فأشرن له بالذهاب إلى قسم الأمانات عبر أخذ المصعد، أخذ المصعد ودلف إلى قسم الأمانات، تسلم مبلغًا من المال، وكارتًا شخصيًّا باسم (لطفي سيد عبد القادر)، الاسم كتب بخط واضح، وأسفل الاسم خُط (طبيب نفسي)، وفي الأسفل بخط أصغر العنوان في مكان ما بـ (حلوان).

هذا بداية الخيط إذن، إما أنه مريض ويتردد على عيادة ذلك الطبيب، أو أنه صديق له وهذا مستبعد.

أخذ سيارة أجرة إلى (حلوان)، ثم ترجل باحثًا عن العنوان، سأل الكثير حتى اهتدى إلى العنوان.

الساعة العاشرة صباحًا، هذا ليس موعدًا لعيادة طبيب نفسي أو عضوي، هبط من سيارة الأجرة أمام البناية، وقف يرمقها، ويرمق اللافتة ويرمق القهوة التي بالأسفل، ثم تقدم وجلس على القهوة.

مرت ساعتان سأل فيهما عن موعد العيادة أكثر من مرة، شرب فيهما الكثير من القهوة التي لم يتذوق طعمها أبدًا، ثم نهض تاركًا بضع أوراق نقدية، وغادر.

صعد الدرج، ووجد باب العيادة مفتوحًا، ابتسم شاعرًا بالنصر، دلف إلى الداخل حيث يجلس ذلك التمرجي.

وقف أمامه وأضاف:

- أريد أن أكشف.

- اسم حضرتك؟

- ...

- اسم حضرتك؟

هذا مربط الفرس، هو لا يذكر اسمه، ولا يذكر أنه جاء إلى هذا المكان من قبل.

- هل حضرتك لا تذكر اسمك؟

- (جمال).. (جمال عاطف).. اسمي (جمال عاطف).

- حسنًا، تفضل.

قالها التمرجي وهو يقتاده إلى غرفة الطبيب، أدخله ووضع الورقة أمام الطبيب الذي نهض ليستقبله بابتسامة ودود، وهو يضيف بعين ترمقه، وترمق الورقة:

- أهلًا (جمال)، كيف حالك؟ تفضل.

كان جمال هذا واقفًا يرمقه بدوره عله يتذكره، أو يتذكر المكان، لكن لا جدوى.

- (جمال).. اجلس تفضل.

- اسمي ليس (جمال)!

- ماذا؟! لا أفهم!

- الحقيقة أنني أخبرت التمرجي بأن اسمي (جمال)؛ لأنه أصر أن أمليه اسمًا، لكن أنا لا أدري ما هو اسمي، لقد أفقت من غيبوبة لأجدني قد فقدت الذاكرة، ولم أجد سوى ذلك الكارت (عبث في جيوبه وأخرجه ووضعه أمامه على المكتب) في جيوبي بين متعلقاتي الشخصية في أمانات المستشفى؛ لذا جئتك، لعلي أجد أي شيء يعيد لي الذاكرة أو على الأقل يساعدني.

نهض الطبيب من على مقعده وأضاف وهو يعدل من عويناته:

- الحقيقة يا بني أنني؟

- نعم، أعلم ما ستقوله عن أن الكثيرين يمرون عليك، لكن أقصد هل رأيتني من قبل؟ هل تذكِرني؟ هل تذكر أنك رأيتني من قبل؟

- حسنًا، دعنا نبدأ من جديد، قل لي ما الذي تذكره عن نفسك؟

- للأسف لا شيء.

- حسنًا، دعنا ننتقل إلى ذلك الشيزلونج، والآن أغمض عينيك، استرخ تمامًا، وقل لي ما الذي تراه الآن؟

قالها وهو يجلس على مقعد وثير إلى جواره، ويمسك بقلم وورقة، وينتظر إجابته الغريبة جدًّا:

- ظلام.. ظلام حالك.. ودماء.. دماء في كل مكان، و...

قالها وفتح عينيه ونهض عن الشيزلونج، وابتعد عنه وهو يلهث، ثم أخذ يسعل.

نهض الطبيب ليطمئن عليه:

- اهدأ.. لا بد لك أن تهدأ، كي نصل إلى...

- سأرحل.. أشعر بأن صدري يضيق، أشعر أنني أختنق.

قالها وخرج من العيادة إلى الشارع، ووقف في الشارع يلتقط أنفاسه.

الخيط الوحيد الذي كان يأمل فيه قد انقطع، والآن لا بد له من مأوى.

بحث في المنطقة عن شقة صغيرة تصلح للسكنى (مفروشة)، دله الجميع على (حمادة)، (حمادة) حارس عقار وسمسار، وسباك ويعمل كل شيء، فقط أعطه مالًا وسوف يطير في الهواء ويحملك على ظهره ويوصلك لأي مكان كالحمار.

أخبره أن لديه شقة تصلح، لكنها صغيرة نوعًا ما، هي أعلى البناية التي يحرس عقارها، وافق ونقده المبلغ المتفق عليه، وانتقل إليها.

مشهد البناية من الخارج دل على مشهدها من الداخل، الدرج صغير نسبيًّا، مظلم، رائحته خليط بين أكلات الجيران وقمامتهم، وصل إلى السطح ثم إلى الغرفة، أخرج المفتاح، فتحها له ودخل ليريه إياها.

- البناية قديمة؛ لذا لم يتم التعاقد على مصعد، أيام قليلة وسوف تعتاد الصعود دون كلل.. ستجد ضالتك هنا.. هذا الفراش، وهذا موقد صغير لتصنع عليه ما تريد من طعام.. لو أردت شيئًا فقط اتصل بي.

- الحقيقة ليس معي هاتف.

- حسنًا، أنا أجلس معظم الأوقات على تلك القهوة التي وجدتني عندها، لو أردتني ستجدني هناك.

قالها وتركه وانصرف.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- 3 -

تفقد الغرفة مرة أخرى، أعد لنفسه كوبًا من الشاي، ثم خرج إلى السطح، وقف يرمق (القاهرة) من أعلى البناية في الظلام، هناك رائحة طعام يتم طهيه، صحيح أنها ليست شهية، لكنه طعام على أية حال.. هناك غسيل قد نشره أحدهم كي يجف، هناك صندوق قمامة كبير في وسط السطح لا يعلم لمَ وضعوه هنا، عبثت به القطط وأخرجت ما به على الأرض.

شرب كوب الشاي، ثم دلف إلى الغرفة، جلس على الفراش المتسخ يفكر.

من هو؟ هل هو متزوج أم لا؟ هل لديه أبوان؟ هل لديه أولاد؟ ماذا يعمل؟

كل شيء سيتضح يومًا ما، لكن الآن عليه أن ينام، ينام فحسب.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في الصباح نهض على صوت دقات باب الغرفة.

فتح الباب ليجد (حمادة) يقف خلفه ويبتسم ويحمل كيسًا به طعام، أفسح له الطريق فدلف إلى الداخل، وضع الكيس على منضدة صغيرة من البلاستيك وفضه:

- لقد جلبت لك الفطور، أعلم أنك لم تتناول طعامًا من الأمس.

الغريب في الأمر أنه لم يكن جوعان، إنه في أفضل حال، والغريب أيضًا أنه يريد فوارًا، إنه يشعر بالشبع، إن صح التعبير هو يشعر بأنه قد التهم بقرة للتو!

نظر إليه (حمادة) بتعجب، وهو يضيف:

- حسنًا، هل تناولت الفطور وحدك؟ ليكن، سوف أتناول الطعام وحدي وأتركك، لقد حسبت أنك...

- لم أتناول شيئًا منذ الأمس، لكنني بخير ولست جائعًا، سوف أعد لك بعض الشاي.

قالها واتجه إلى الموقد الصغير ليعد الشاي ويدردشا معًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عندما وصل الشرطي (عماد) إلى موقع الحادث، كان الناس يلتفون حول الجثمان كالنمل، الجميع يقتله الفضول؛ لذا يقف ويلقي النظر على جثمان

(توفيق)، ذلك العجوز الذي صار أشلاءً، وما تبقى منه هو الرأس وبعض اللحم إن كان لي أن أقول ذلك، فأنا لا أريد وصف جثته كما تعلم.

وقف الشرطي ومعه ممثل النيابة، وطبيب شرعي يرتدي معطفًا أبيض اللون، جثا على ركبتيه وأخذ يلملم ما يريد مما تبقى من الرجل:

- ماذا قال الطبيب؟

- لم يعط أي معلومات بعد، لكن من الوهلة الأولى يبدو لي أنه حيوان مفترس، لن يفعل ذلك إلا حيوان مفترس، أنت تعلم أننا على أعتاب الصحراء، وهناك الكثير من المزارع التي تربي الحيوانات المفترسة، ربما هرب حيوان منها، أو سربه أحدهم كي لا تتم معاقبته.. فالقصة معروفة، الرجل سار وحده عائدًا من العمل آخر الممر، بضع ثوان يمر أسفل الكوبري المظلم، لكنها كانت كافية ليحدث كل شيء.

- حسنًا، سوف يتضح كل شيء تباعًا.

قالها ممثل النيابة وهو يشعل لفافة تبغ وينفس دخانها في الهواء.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

دعونا من العجوز هذا، ولنذهب إلى تلك السيدة التي تعد طعامًا لزوجها الذي يعمل ليلًا ويعود من عمله نهارًا، تقف تسمع المذياع، وترقص على أنغامه وتتذوق الطعام، ثم تعود للرقص.

تنظر من النافذة لترى المطر، تغلق الجزء المفتوح من النافذة، وتكمل الغناء والرقص.

هي تقطن في الطابق الأرضي، هنالك حديقة صغيرة تحيط بالمنزل، لكنها خاصة بشقتها فقط.. لقد اقتنت كلبًا بوليسيًّا وهو يكفي لحراستها، ينبح من حين لآخر كي يقول للجميع (أنا هنا)، كان قلبها يدق وقتها وتخرج وهي تؤخر قدميها فتجده يقف يلهث يتمسح فيها، تضع له الطعام، ثم تعود إلى الداخل؛ لذا فقد اعتادت الأمر كما تعلم.. انبح وسوف أخرج لك في وقت إطعامك فقط.

الكلب ينبح بشدة وهي ترقص، تسمع صوت خدش على الباب الخشبي، ثم قرع قوي!

تترك الطعام على النار وتذهب إلى الباب تنظر عبر الفرجة، لا شيء!

هذه المرة تسمع خدشًا على الزجاج الخاص بالشرفة.. ثم نباحًا قويًّا لكلبها، ثم عواء وصمت، ثم تهشم الزجاج!

قلبها يدق بعنف، تتراجع إلى الخلف وتهرع إلى المطبخ، تلتقط سكينًا كبير الحجم، تنظر إلى الزجاج المهشم، وتتركه وتفتح الباب، وترى الهول ذاته.

إن كلبها ممزق إلى نصفين، وغارق في دمه!

ملأت الدنيا صراخًا، لكنها تمالكت نفسها، وقبضت بشدة على السكين.

هنا ترى حيوانًا، بالأحرى ذئبًا أشعث عملاقًا يقف على قدميه الخلفيتين! تنتفض وتتوارى خلف الجدار، تلقي نظرة على الضخم ذي الظهر المنحني وهو يطلق زمجرة وعواءً والزبد يسيل من فمه، هذا ليس بشريًّا، هذا أمر واضح.

تتراجع إلى الخلف بينما يثب العملاق إلى الداخل وينفض الفراء.. تتوارى أسفل المطبخ وتنتظر ويدق قلبها بعنف أكثر، تشعر به يتقدم داخل الصالة.

تهرع زاحفة إلى داخل غرفة النوم وتهم بإغلاق الباب، يقفز هو ويمسك الباب ويحشر أنفه ويمزجر، تحاول أكثر، لكنها تدرك أن الباب سيتهاوى ويستسلم.

تتركه وتهرع إلى الداخل، يتقدم هو وتتراجع هي إلى الخلف أكثر حتى تلتصق بالجدار، لا مفر إذن.. ترتعد ويسقط السكين من يدها.

يمكنها الآن أن تشم أنفاسه الساخنة ورائحته الكريهة، تغمض عينيها وتنتظر مصيرها وتطلق صرخة تصم الآذان، ثم يصمت كل شيء.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مرة أخرى يحكُّ الشرطي يديه ببعضهما البعض كي ينعم بالدفء، وينظر إلى جثمان السيدة الممزق، ويرمق المطر بالخارج، ويضيف:

- لن نقدر على تجاهل الحقائق للأبد، الأمور تتسلل من أيدينا، ونفقد السيطرة عليها، للمرة الثانية في ذات المنطقة، جثة أخرى بنفس طريقة القتل، لقد مزقت تمامًا.

- لا بد أن نفحص المنطقة كلها، سوف أعطي أوامري بتمشيط المنطقة كلها اليوم.

قالها له صديقه، وهو ينفث دخان سيجارته في الهواء، ويلقيها على الأرض ويدهسها، ثم انصرف من أمامه صارخًا في جهازه أن انتشروا.

نظر إليه، وهو يردف:

- سوف يبيت الحيوان في قفصه اليوم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- 4 -

بلا أمل أو عمل يقف خارج غرفته يعبث في جيوب بنطاله، يعد النقود كأنه يطمئن عليها، ثم يدسها مرة أخرى في جيوبه، ويرشف ثمالة الكوب، ويرمق الطرقات من الأعلى، الليل في (القاهرة) ساحر، الأضواء تعطي سحرًا وبريقًا لا مثيل له.

- هل أنت بخير اليوم؟

التفت ليرى صاحب الصوت، فوجد فتاة ملفوفة القوام، سمراء، تشمر عباءتها إلى الكوع، وتمسك بطبق مليء بالغسيل، تدنو من حبال معلقة بطول البناية، وتبدأ في نشره، وهي تردف: - علمت أنك كنت في المستشفى، وأنك فقدت ذاكرتك ولا تعلم من أنت حتى، صحيح؟

لم تنتظر ردًّا منه وأردفت:

- أنا (رضا)، جارتك في الطابق الأسفل، لقد تُوفي (ممدوح) وتركني كالوردة بمفردي في تلك الدنيا اللعينة، أنت تعلم أن الأرملة يظنون بها الظنون، لكنني...

قاطعها:

- بخير حال.

قالها وتركها ودلف إلى الغرفة وأغلقها خلفه.

فرد نفسه على الفراش، وأخذ ينظر إلى السقف الذي تخللته الشقوق وذهب طلاؤه.

هنا سمع قرعات على الباب، نهض وفتح ليجدها.. إنها تسد الباب: - ما بك، هل ضايقك حديثي؟

تركها وأفسح لها مجالًا للدخول، فدخلت ولم تغلق الباب، أضافت: - الغرفة كما هي، لقد دخلتها لأنظفها قبل أن تقطن فيها، أخذت مقابل هذا لو لم تكن تعلم.

- حقًّا.. إذن تفضلي الآن، لنكمل الحديث غدًا؛ لأنني أريد أن أنام قليلًا.

قالها وهو يتقدم ناحية الباب؛ كي يعلن لها عن استيائه ورغبته في انصرافها.

ضحكت ضحكة أيقظت فيها الموتى، وانصرفت.

أغلق الباب وعاد إلى الفراش وهو ينفخ في الهواء نفخة كادت تحرق من وقف أمامه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في الصباح استيقظ على صراخ (رضا) الذي أتى من الخارج، خرج من غرفته ليجدها تقف، لكن صراخها لم يقف بعد، أمامها كانت هناك قطة ممزقة إلى نصفين، أحشاؤها حولها في كل مكان!

- يا للقرف! ما هذا؟ من فعل هذا؟

قالها والتقط (رضا) بين أحضانه كي يهدئ من روعها كما تعلمون، ودلف إلى الغرفة بها.

أجلسها على مقعد خشبي تحطم وتم إصلاحه (1155245) مرة، أحضر لها كوبًا من الماء، جرعته، ثم نهضت تجاهه جلست أمامه ولثمته في جبينه.

يا للجرأة! هذه سيدة جديرة بالاحترام حقًّا كما ترون.

تنحنح، ثم أضاف:

- سيدتي أرجوك أن...

لم تتركه ليكمل، فقط أكملت هي ما تريد أن تفعله.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الساعة الآن الثانية والنصف صباحًا، المطر ينهمر كالصنبور الذي فتحه أحدهم وتركه ليغرق الكون، الرعد يضرب بقوة، الكل في بيته يرمق كل هذه الأجواء، والطرقات خالية إلا من اثنين أو ثلاثة وكلب أجرب وقطة تعبث في القمامة، يهرع خلفها الكلب وهو ينبح، فتهرع بدورها، وهو خلفها.

يحك الشرطي كفيه، ويرمق كل ذلك وهو يقف أسفل سقف منزل يمتد قليلًا إلى الخارج، صانعًا مظلة لا بأس بها تقيه من المطر.

لقد أمره رئيسه، ومعه بعض زملائه، بأن يمشطوا تلك المنطقة، باحثين عن أحد الضواري قد ضل طريقه وهرب من صاحبه، أو هجره صاحبه إلى الأبد؛ خوفًا من المسئولية.

الأمطار تبطئ قليلًا، فيخرج هو من مكانه ويكمل السير في الشارع المظلم، يتفقد المنطقة بأسرها، لا شيء جديد، ولا شيء يذكر.

هنا سمع صوتًا متحشرجًا، ثم صوت عواء كأنه شخص يعوي وهو يتألم، وفي لحظات سمع خطوات تركض تجاهه، خطوات قد حددت هدفها تمامًا، التفت

ووضع يده على سلاحه، لقد قاده حظه العاثر وظهر في طريقه حيث سار وحيدًا وابتعد عن أصدقائه، لماذا هو بالذات؟

سحب سلاحه وصوب إلى الخلف، هنا رآه.. طوله يقارب الست أقدام، نصفه العلوي ذئب والسفلي بشري تمامًا، نظر إلى عينيه مباشرة، إنهما تتقدان نارًا، أطلق خلالها عواءً، أطلق هو رصاصة أصابت كتفه، لكنها كانت آخر شيء يفعله، لأن رأسه طار من مكانه بضربه قوية من مخلبه.

هرع أحد رجال الشرطة القريبين من موقع الحدث؛ كي ينقذ ما يمكن إنقاذه، لكنه وجد صديقه غارقًا في دمائه بلا رأس.

أمسك الجهاز الخاص به وبدأ يتحدث إلى زملائه؛ كي يهرعوا إليه للمساعدة.

شعر بمن يتحرك خلفه، أخرج سلاحه، واستدار، ليجده يقف فاردًا نفسه، الزبد يسيل من فمه، ساقاه مثنيتان إلى الخلف، أنفاسه الكريهة تزكم أنفه، لم يستطع أن يفعل شيئًا، شعر أنه قد صار تمثالًا من الشمع، رفع سلاحه وصوبه ناحيته، لكن الوحش كان أسرع منه بكثير، فقط رفع مخلبه وأطار به عنقه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الكثير من رجال الشرطة والكثير من سياراتهم، الكثير من الشوارب الكثة والأكتاف العريضة.

لقد اجتمع الجميع ليناقشوا ما حدث، لقد قتل الوحش اثنين من رجال الشرطة، واثنين من العامة، الأمر صار جللًا، وبدأت الصحافة تحشر أنفها أكثر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

نهضت (رضا) وهي تتحسس الفراش جوارها، تتحسس الغريب الذي نامت إلى جواره وفي حجرته، لكنها لم تجده!

نهضت وهي تتثاءب فاردة ذراعيها، عدلت من هندامها، وارتدت خفها، وبحثت عنه لكن دون جدوى.

خرجت إلى سطح البناية تتثاءب وتدندن أغنية قديمة، هنا رأت ما جعلها تمسك فمها وتتوارى خلف قطع الغسيل التي نشرتها منذ قليل.

لقد رأته، لكنه لم يكن كما كان، كان عاري الجذع تمامًا، غارقًا في الدماء، كان يشبه الذئاب لكنه ليس ذئبًا، يشبه البشر لكنه ليس بشرًا، له أنياب، يغطي الشعر رأسه وخده، وسائر جسده.

مر من أمامها دلف إلى غرفته وأغلقها، هرعت هي على الدرج إلى أسفل، دقت كل باب في البناية حكت له القصة في عجالة، كأنها تمسك رشاشًا تطلقه في وجوههم، اجتمع الكل وتسلح بأي شيء وجده أمامه، طلب (حمادة) الشرطة، والتي لم تنتظر حتى احتشدت أسفل البناية.

سمع هو صوت سارينة سيارات الشرطة، لقد أتوا لأجله هو يعلم ذلك، ينهض بتثاقل، ينظر من النافذة الصغيرة، ثم تذكر كل شيء.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

إنه الآن يذكر كل شيء، يذكر كيف كان له ولد وزوجة، كيف فقد عمله واستغنت عنه الشركة في ذلك اليوم المنحوس، كيف طرده صاحب العمل شر طردة، كيف بحث عن عمل في كل مكان ولم يجد، تراكمت الديون عليه، مالك العقار لم يمهله، طرده هو الآخر، لم تتحمل زوجته، وتركته بدورها.

لقد صار وحيدًا كالذئب، بلا مأوى أو زوجة أو عمل.

أسفل الكوبري تكوم ونام، وأسفل الكوبري قابل دكتور (مايكل شوكت)، توقف بسيارته أمامه.. ترجل منها، رجَّه رجًّا لينهض بعين حمراء كجثة لفظها النهر.

- من أنت؟

- قم معي.

نظر بعين ناعسة للرجل الذي تبدو عليه علامات الثراء ثم أضاف: - إلى أين؟

- تعال معي وسوف تعرف، لا تخف.

لا يعلم لماذا وافقه ونهض معه.

- إلى أين؟

- قلت لك لا تخف، فقط قل لي هل تحب الجلوس على كافيه كي نتحدث، أم...؟

- قهوة، أريد أن آكل.

نظر إليه وابتسم وواصل قيادة السيارة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

على القهوة جلس الاثنان يحتسيان الشاي، وأمامه وضعت شطيرتان من الفلافل والفول المخلوط بالزيت الحار، أخذ يلتهم الشطيرتين كمن لم يأكل من قبل.

نظر إليه الطبيب وأضاف:

- لعلك لم تذق الطعام منذ زمن.

- ...

لم يجبه، فقط نظر إليه وأكمل ما كان يفعله.

- حسنًا، أنا طبيب.. اسمي (مايكل).. طبيب بشري متخصص في أمراض الدم، لكنني باحث كذلك، مؤخرًا أجريت بحثًا عن مرض يدعى لايكانثروبي، هو مرض نادر، ذكره أطباء قدامى في كتبهم مثل ابن سينا وغيره وأطلقوا عليه اسم القطرب، هو مرض شبيه بمرض البورفيريا، مرض دم شهير يجعل من يصاب به حساس الجلد، يهرب من الشمس، وأظفاره تطول ويميل إلى القتل ويحب الدماء، نحن نطلق عليه متلازمة الرجل الذئب.

قال ما قال، ونظر إليه، وجده ما زال يأكل، فأردف:

- أريد منك أن تساعدني.. مقابل مبلغ كبير من المال، وسوف أضمن لك أنك لن تموت.

- لا فارق.

قالها وهو ينظر إليه، قالها علامة على موافقته على تلك الصفقة، نظر إليه الطبيب، وأضاف: - حسنًا، ليكن اتفقنا، ما اسمك؟ كي نكتب عقدًا بيننا يضمن لك حقك.

- لا فارق، فقط أعطني النقود.

نظر إليه الطبيب، وأضاف:

- سوف نجري بعض الفحوصات أولًا لنطمئن على حالتك، ثم...

- لماذا أنا بالذات؟

نظر إليه الطبيب وأضاف:

- لا فارق.

قالها وابتسم، ثم أردف:

- لو كنت وجدت آخر لكنت عقدت الصفقة معه، لكنك سعيد الحظ.

قالها وهو ينهض معلنًا عن انتهاء اللقاء.

اتفقا على موعد لإجراء كافة التحاليل والفحوصات، وجاء اليوم الذي سيتم فيه إجراء التجربة.

أمسك الطبيب بورقة، وأضاف وهو يملي ما بها عليه:

- سوف تلتهم ذلك اللحم النِّيء الذي أمامك، إنه لحم ذئب.

ثم يتم دهان جسدك بالكامل بدم خفاش وخلاصة نبات الحسن، وسوف تبيت الليلة خارج الدار تحت البدر.

- ثم؟

- ثم تعود إلي كي أرى النتيجة وأحقنك ببعض المحاليل.

- حسنًا، لنبدأ.

قالها وبدأ الاثنان في التجربة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بعد أن بات في الخارج عاد إلى الطبيب، هذه المرة لم يكن الطبيب بمفرده، كانت هنالك ممرضة بدينة تقف لتعلق محلولًا بجانب فراش مهندم تم وضعه ليبيت هو عليه.

وبدأت الملاحظات والتغيرات تتضح.

في البداية كان هناك اسوداد في البول، ثم المغص، المغص والصداع الشديد وجفاف اللسان والحلق، بدأت قروح كثيرة في الظهور، ثم ضعف بصره.

إلى أن جاءت الليلة التي تغيرت ملامحه وظهرت أنيابه، وعوى فيها كالذئاب.

حاولت الممرضة أن تحقنه بعقار كي يهدأ، لكنه كان سريعًا كالرصاصة، وذهب عقله تمامًا، لم يعد هو، دفعها إلى الخلف فطارت وارتطمت بالجدار وغابت عن الوعي. يمكنه الآن أن يقتلع شجرة من جذورها.

الطبيب صار عاجزًا عن فعل شيء، حاول الهرب، لكن لا مناص، قفز من فوق كل شيء لينقض عليه ليخرج أحشاءه من بطنه، ثم أخذ يعوي، إلى أن غاب عن الوعي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

يفيق من خواطره على خبطات على باب الغرفة، الشرطة والجيران وصلوا إليه.

الباب لن يصمد أكثر؛ لذا نظر إلى أسفل البناية ووثب على حافة النافذة، كان الحشد قد دلف إلى غرفته، لكنه قرر أن ينهي كل شيء بنفسه أخذًا بقاعدة «بيدي لا بيد عمرو»، رمقهم بنظرة أخيرة.. ثم ترك نفسه في الهواء.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

الحكاية الخامسة
علامات
- 1 -

قد تصدقني أو لا..

لن أفرض عليك شيئًا؛ لأن هذا من حقك، ولك حرية الاختيار المطلقة.

لكنني مصر على أن تصغي لي أولًا، ثم تدلي برأيك كيفما شئت..

اتفقنا؟

اتفقنا.

أنا صحفي في جريدة «العاصمة والناس»، جريدة ليست مشهورة، لكنها جيدة بالنسبة لي ما دمت أتقاضى مالًا.. اسمي هو (مؤمن حسن بسيوني).. أعزب؛ لذا أرتاد مطعمًا من المطاعم التي تستقر خلف الجريدة.

بدأت قصتي يوم ثلاثاء، أثقل أيام الأسبوع كما تعرف.

تحديدًا في ذلك المطعم.. أجلس لأتناول وجبة الغداء في نهم وأتابع من حين لآخر مباراة ما لفريقين في كرة القدم، وعلى ما يبدو أنها كانت هامة؛ نظرًا لالتفاف الجميع حول الشاشة، بالإضافة إلى الحركة غير العادية التي دارت في المطعم.

كنت قد اعتدت الجلوس على المائدة التي تحمل رقم (13)، وهي بالمناسبة تقع في نهاية المطعم.

لكن هذه المرة.. كان هناك شيء ليس على ما يرام في هذه المنضدة.

على ما يبدو أن أحدهم كان يجلس عليها، وراح يعبث بشيء ما حاد، كسكين أو شوكة، وصنع حَفرًا غائرًا في المنضدة، كتب به ثلاثة حروف، وهي: (ع - ص - ا) في صف مستقيم على هيئة حفر.

(ع - ص - ا)..

ضايقني ذلك المشهد وضجرت قليلًا.. كثيرون هم من يفعلون ذلك.

من المؤكد أنك رأيت ذلك المشهد من قبل.. إن لم يكن على منضدة في مطعم، ففي مقعد في أتوبيس، أو حتى في دورة مياه عمومية.

فقط.. تأمل الجدران فسوف تجد من راق له خطه واتخذ منها تابلوهًا، وأخذ يخط عليها بعض الأسماء وبعض النقوش.. والتي ربما تخدش الحياء.

على العموم لم يمر هذا الموضوع أمامي مرور الكرام.. فقد اتخذت منه موضوعًا ووضعته في مقال بالجريدة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في اليوم التالي..

لم أعر ما حدث اهتمامًا..

فقط.. هي ظاهرة كتبت عنها ومرت؛ لذا أنهيت عملي بالجريدة وذهبت إلى ذلك المطعم ومن ثم ذات المنضدة.

لكن هذه المرة كان عليها شرشف أنيق ومزهرية.

جاء النادل (طه) وطلبت منه ما أريد.

بعد دقائق جاء الطعام وانهمكت في الأكل.

لا أعلم ما الذي جعلني أتوقف عن الأكل وأتذكر ليلة أمس.. فألقيت بالملعقة جانبًا وأنا أنظر حولي؛ كي أتأكد أن لا أحد يرمقني، ثم رفعت الشرشف ببطء، لأجد أن الحروف إياها قد زادت حرفًا وهو «الميم».

لقد صارت إذن اسمًا مفهومًا.. (عصام)!

هنالك من يدعى عصام، وهو يأتي إلى هنا، ويجلس على تلك المائدة بالذات.. ويسلي نفسه بنقش حروف اسمه عليها.

أعدت الشرشف كما كان، وأكملت غدائي وانصرفت.

عدت إلى شقتي، وأنا أفكر في كتابة مقال آخر أتحدث فيه عن هذه الظاهرة.. وكيفية التخلص منها.

جلست أشاهد التلفزيون قليلًا، وبعدها دلفت إلى الفراش، ومن ثم غلبني النعاس.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عادة أنا لا آكل كثيرًا في العشاء.. أو ربما لا آكل أصلًا.. لا تزورني الكوابيس، ولا أنا من الذين يعتقدون في هذه الأمور، لكن هنالك بعض الأحلام تستحق أن تذكر، أو تروى إذا كانت غريبة بعض الشيء.. أو إذا كانت لا تخصك أصلًا.

فذلك الحلم الذي رأيته.. كان يبدأ بذلك الفتى الأشقر، يسير في طريق ما.. (على ما يبدو أنه بالقرب من جامعة القاهرة؛ نظرًا لصوت دقات الساعة الذي

تردد في أذني كثيرًا وطوال الحلم).

ثم يتوقف ليعبر الطريق، وعندها تصدمه سيارة مسرعة.

نهضت لاهثًا، كأنني كنت أمارس رياضة ما، وجرعت كوبًا من الماء.

وعدت مره أخرى للفراش.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مرت ثلاث ليال..

وفي كل ليلة أحلم بذات الحلم، الذي يبدأ بالفتى وهو سائر، وينتهي باصطدامه بالسيارة.

أنا لا أومن بالخزعبلات، وهذا طبعي، لكن تكرار ذلك الحلم لم يطمئنني على الإطلاق؛ لذلك اهتممت بتفسيره وحاولت كثيرًا..

لكنني لم أنته من المزاح والسخف..

فالبعض عزاه إلى طول عمري، والبعض الآخر إلى قِصره.. وخذ عندك... إلخ.

بالطبع لم أقتنع بأى منها.

أنهيت عملي وذهبت مرة أخرى إلى المطعم..

وهذه المرة سأختصر عليك الوقت..

وسأبدأ من لحظة رؤيتي للنقوش التي تزايدت.

كما توقعت تمامًا.. لقد زادت الحروف بعدد الأيام، حتى صارت (عصام، محمد، ديسمب).

بالطبع هذه الأخيرة ليست سوى شهر ديسمبر.

لكن لماذا ينقش الحروف راسمًا الرقم (12)؟

لا بد أن هناك من يريد قول شيء، لكن ما هو؟

وأين هو؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في اليوم التالي..

قررت عدم الذهاب للجريدة والتوجه مباشره إلى المطعم، والمكوث فيه منذ الصباح.

تناولت الإفطار، وسألني طه عن سبب مجيئي صباحًا، ومن ثم تغييري للمائدة..

لم أَصْدُقه القول.. بأنني فعلت ذلك من أجل مراقبة شخص ما لا أعرفه.. وهو ينقش على مائدة مطعمهم.

فاخترعت له عدة أسباب واهية، وانصرف غير قانع.

مرت ساعة تناولت فيها الإفطار ولم يحدث شيء.

ومرت أخرى.. دون جدوى.. كل ما يذكر هو جلوس تلك الفتاة السمراء لتتناول طعام الإفطار، وبعدها انصرفت دامعة العين!

نظرت في ساعتي لأجدها العاشرة صباحًا.

ذهبت إلى الحمام، وعدت أرمق المائدة مرة أخرى.

ساعة أخرى مرت دون جدوى؛ لذا نهضت وأزحت الشرشف.. لأجد ما كنت أنتظره!

لقد اكتملت الجملة تمامًا بإضافة حرف الراء.

من نقش ذلك الحرف؟!

(لا تقل لي من فضلك إنها تلك الفتاة السمراء؛ فأنا راقبتها جيدًا).

أشعلت لفافة من التبغ، جلست أرتب أفكاري كي أتخذ قرارًا أقرب إلى الصواب.

هنالك من يدعى (عصام محمد).. هنالك شهر ديسمبر.. الحروف تدل على الرقم (12).. عدد الحروف ثلاثة عشر..

الحروف تدل على رقم (12)..

عدد الحروف ثلاثة عشر..

لا أعلم لماذا ربطت ما يحدث في المطعم بما يحدث في الحلم، هنالك شخص يقتل في حلمي مائة مرة.. إنه يموت في الظهيرة في مكان ما بالقرب من...

«يا لي من أحمق»!

هكذا صحت بعد أن اكتملت الفكرة في عقلي، بعد أن ربطت تلك الأفكار، وجمعت ما يحدث في حلمي مع ما يحدث هاهنا.

عندها جاءني الحل كالصاعقة..

إنها رسالة..

وربما تعني.. أن هناك من يدعي (عصام محمد).. وأن هناك سيارة ستصدمه بالقرب من جامعة القاهرة.. وأن هذا سوف يحدث في يوم.. مــم.. ربما.. «الثالث عشر».. نسبة إلى عدد الحروف.. من شهر «ديسمبر».. في تمام الساعة.. أعتقد أنها «الثانية عشرة» ظهرًا، لو نظرنا إلى طريقة نقش الحروف، التي ترسم الرقم (12).

«يا لي من أحمق»!

اليوم هو الثلاثاء، الثالث عشر من شهر ديسمبر.

إذن الميعاد اليوم على حد علمي.

نظرت في ساعتي، لأجدها الحادية عشرة صباحًا.. أي أن ما سيحدث، بعد ساعة من الآن.

ركضت إلى الخارج.. دون أن أدفع الحساب.. أخذت سيارتي الصغيرة، واتجهت إلى جامعة القاهرة.. أملًا في إيجاد أي شيء يدل على صحة توقعاتي.

أخذت أنهب الشوارع نهبًا بسيارتي.. دون أن أبتعد عن نطاق جامعة القاهرة.

مر من الوقت حوالي ساعة ونصف.. دون جدوى.

كدت أفقد الأمل، وأعود أدراجي، لولا أن لمحت ذلك الفتى الأشقر الذي بدا لي مألوفًا!

إنه ذلك الفتى الذي رأيته في أحلامي مرارًا!

ضغطت المكابح، أوقفت المحرك، ثم دلفت إلى الخارج.. وتوجهت نحوه..

فى هذه اللحظة..

رأيت تلك السيارة السوداء.. تتجه ناحية الفتى في إصرار، إنه ذات المشهد الذي تكرر أمامي عشرات المرات، لكنه الآن حقيقة ترى بالعين.

الآن سوف يتقدم الفتى، وبعدها يتلقى الصدمة..

لكنني لن أدع هذا يحدث بكل تأكيد، فقط رحت أركض تجاهه، ثم وثبت في الهواء، قابضًا بيديَّ على كتفيه، طارحًا نفسي وإياه على الأرض.

ومرت السيارة أمامنا في سلام.

نهضنا سويًّا بعد أن شكرني، ثم نظرت له متسائلًا عن اسمه.

فأجابنى أنه يدعى (عصام محمد)!!

تنهدت في استسلام، وانصرفت بعد أن عرضت عليه المساعدة.

وبدوره شكرني مرة أخرى ولملم أوراقه وانصرف.

الآن انتهت قصتي بكل تفاصيلها..

هل وجدت تفسيرًا لما حدث؟

بل والسؤال الأهم هو.. «هل تصــدقني الآن»؟!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

خاتمة..

أغلقت الأوراق التي أعطاها لي (هيثم)، لكن لم أنته منها بعد، لقد أنهيت كوب الشاي، وعيناي لا تتحملان بعد، أعتقد أن وزنها صار طنًّا، لا بد أن أستسلم للنوم، حقيقة أنا جائع، لكن النوم دون عشاء أفضل بكثير كما تعلم؛ لذا نهضت جارًّا نفسي إلى غرفة النوم، وألقيت بنفسي على الفراش.

صحيح أنني انتهيت اليوم من القراءة، لكنني لم أفرغ من قصص (هيثم) بعد، سيكون لنا موعد قريب مع باقي أوراق (هيثم)، وأعتقد أنها ستكون المرة الأخيرة لنا مع تلك الأوراق، لكنها ستكون عددًا خاصًّا آخر إن شاء الله.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(تمت بحمد الله وتوفيقه)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـــــاة

الفهرس..

ميتافيزيقا..

مقدمة..

الحكاية الأولى

- 1 -

- 2 -

- 3 -

- 4 -

- 5 -

- 6 -

- 7 -

- 8 -

- 9 -

- 10 -

- 11 -

- 12 -

- 13 -

- 14 -

الحكاية الثانية

- 1 -

- 2 -

- 3 -

- 4 -

- 5 -

الفصل الأخير

الحكاية الثالثة

- 2 -

- 3 -

- 4 -

- 5 -

- 6 -

- 7 -

- 8 -

- 9 -
- 10 -
- 11 -
- 12 -
الحكاية الرابعة
- 4 -
الحكاية الخامسة
خاتمة..